

شارل حلو في الذكرى الخامسة والعشرين لغياب فؤاد شهاب:

كان نموذجاً للقيادة الوطنية الشريفة

جريدة النهار - 25 نيسان 1998

في الذكرى الخامسة والعشرين لغياب الرئيس فؤاد شهاب، وجّه الرئيس شارل حلو كلمة متحدثاً عن الشجاعة والصدق والقانون والنزاهة والإيمان بوحدة الوطن وسيادته وفضائل اخرى في الرئيس الراحل. قال:

"فؤاد شهاب في ذمة الله، منذ خمس وعشرين سنة.

ارتحل يحمل عصارة تجربة امتدت طوال القرن العشرين، فكان أحد صانعي تاريخ لبنان الحديث، ولم يقف مهمشاً على وصيف الزمن.

في حياته، وكما يقول عنه غبطة البطريرك المعوشي، "اختصم الناس فيه: أطرى المؤيدون نهجه عاطر الإطراء وأحبه من أحبه حتى العبادة، وهاجمه المنتقدون أعنف هجوم وأبغضه من أبغضه حتى الموت". ولكن الموت وحدّ الجميع احتراماً له وتقديراً لعطاءاته.

تسلّم مقاليد رئاسة الجمهورية بعد محنة وفتنة، فإذا به يعمل لتكريس وحدة لبنان شعباً ومؤسسات. ولأنه عمل بجدية ونشاط، والاه بالبعض وعارضه آخرون حتى صحّ فيه القول، "ما اختلف الناس إلا على العظماء".

اليوم، إذ نتذكره، يمكننا ان نتبيّن صورته الحقيقية، بعيداً عن الأحداث اليومية العارضة.

وإذا كان لي، وقد عرفته قائداً للجيش اللبناني ورئيساً للجمهورية وعاملاً في الحقل الوطني، بتمرس وصدق وترفع، ان اختصر شخصيته من خلال تجربتي معه، فإنما أؤكد على الصفات الآتية:

1- **الانضباط واحترام القانون:** فؤاد شهاب عسكري متشدّد على نفسه، كما على زملائه ومرؤوسيه. كان خاضعاً للقانون الى حدّ ان "الكتاب" أي الدستور، أصبح هاجساً له، حتى ليكاد يؤكد دائماً: عودوا الى "الكتاب".

2- **الثقة بالنفس وبالآخرين:** فؤاد شهاب لا يخطو، خائفاً ومترددأ، انما يقدم، بوعي وإرادة وبعد استشارة ودراسة، مختاراً معاونيه، واثقاً بقدراتهم، منتهجاً الطريق الموصلة الى الهدف. وقد عرفت

شخصياً هذه الثقة عندما كان يكلفني، وهو في الرئاسة، مهمات معينة واضعاً ثقته المطلقة بي، مؤمناً ان الثقة هي الطريق الى المحبة والخدمة والعمل المشترك.

3- الشجاعة والصدق: كان فؤاد شهاب يتخذ الموقف من دون محاباة للرأي العام او مرضاة للجماهير. فإن اقتنع، كان شجاعاً في اتخاذ الموقف. وقد دخلت عليه مرة فإذا نقاش يدور بينه وبين الأمير موريس شهاب. وكان الرئيس يلومه على التأخر في إنجاز احدى المعاملات. فأجاب الأمير موريس بأن الإرجاء في توقيعها سببه الخوف من المنتقدين الكثر. فردّ عليه الرئيس قائلاً: هل تخشى انتقاد الناس الى هذا الحد؟ ماذا كنت ستفعل لو كنت مكاني، تنهال عليك الانتقادات من كل حذب وصوب؟

4- الإيمان بالوحدة الوطنية: لقد عمل فؤاد شهاب على تكريس هذه الوحدة في نفوس المواطنين، عسكرياً ومدنيين وهو القائل (1960): "ان بلداً كلبنان تعددت مذاهبه وطوائفه وتضافت عوامل عديدة في قرون مديدة، على زرع بذور التفرقة في أرضه وبين أهله، يحتاج اول ما يحتاج الى ما يجمع بين شتات أبنائه، ويؤلف ما بين قلوبهم ويحلّ المحبة في نفوسهم ويوحد صفوفهم وجمهورهم لخيرهم وخير وطنهم". وقد خبرت ذلك شخصياً، من خلال عملي معه مسؤولاً ووزيراً، فعرفت حرصه على تمتين الوحدة الوطنية فلا تعثرها شائبة او تشوهها مصالح شخصية.

5- إلتزامه سيادة لبنان: لم يفرط فؤاد شهاب بقسمين: قسمه العسكري وقسمه الرئاسي: وقد خبرت ذلك من خلال اجتماعه مع الرئيس عبد الناصر، في خيمة على الحدود اللبنانية - السورية. وفي حديثه معي بعد ان تفهمّ ملابسات اتفاق القاهرة، إذ قال: "ما يهمننا قبل كل شيء هو التطبيق الدقيق للبند 13 من الاتفاقية والذي ينص: "من المسلمّ به ان السلطات اللبنانية من مدنية وعسكرية، تستمرّ في ممارسة صلاحياتها ومسؤولياتها كاملة في جميع المناطق اللبنانية وفي جميع الظروف".

6- بناء المؤسسات: عرف فؤاد شهاب ان الدولة ليست أشخاصاً بقدر ما هي مؤسسات ثابتة لا تتأثر بحضور شخصه او غيابه، ولهذا عمل على انتشار الإدارة من أيدي السياسيين، لوضعها في إطار القانون الذي يحصنها بعيداً عن المداخلات والأهواء الشخصية، وهذا ما ظهر من خلال تركيزه على مجلس الخدمة المدنية وهيئة التفتيش المركزي والمجلس التأديبي العام.

7- النزاهة ونظافة الكف: ففؤاد شهاب رجل عدالة وإنصاف ومساواة. وقد عرفت شخصياً، انه عاش متواضعاً حتى الفقر، ولم يترك لأرملته التي ثابرت في التردد إليها، بعد غيابه سوى الصيت الحسن والسمعة الكريمة. ومن أقوالها المأثورة لي: "في بلد صغير كلبنان، لا بد من كلام كثير... وهذا الكلام لا يخيف..."

8- الصمت والصبر: فالرئيس شهاب تعلّم السكوت، ولو على قلق وقهر. في الجيش كان رمزاً للصمت وفي الرئاسة كان ضئيلاً بالتصاريح والخطب فلا تخرج منه إلا الكلمة الواعية المدروسة التي تأخذ الى جانب صدارة العناوين مكانتها في التاريخ الوطني.

رغم ذلك، ومع ذلك، بقي البعض يراشق فؤاد شهاب بالتهمة، آخذاً عليه تصرفات بعض الأجهزة التي سببت للرئيس شهاب ولي بالذات، مشاكل كناً بالغنى عنها.

ورغم الحجارة التي راسقوني بها، ورغم محاولات فك أواصر المودة والثقة بيني وبين الرئيس شهاب، فإنني وللتاريخ أقول: "ان هذا الرجل ولو اختلفنا معه في بعض الأفكار والمواقف كان نموذجاً للقيادة الوطنية الشريفة والكريمة.

ومن البديهي ان تأثر فئة من الشعب بالإشاعات والحملات كثيراً ما حملها على التنكر للواقع وعدم رؤية حقائق الأمور بعدل ووضوح. فكم من القادة والزعماء ظلّمهم الراي العام من دون ان يقدرهم كفاية خلال عهدهم. ولكن من الطبيعي ان ينصفهم التاريخ عاجلاً ويحلهم في المرتبة التي استحقوها بما حقّقوه لبلدهم من منجزات كثيرة وعظيمة.

بعد خمس وعشرين سنة على غيابه، تسقط كل علامات الاستفهام، لتتحول صلاة على قبر هذا الرجل العظيم".

فؤاد شهاب... مدرسة وأخلاق

بقلم كمال جنبلاط

جريدة الأنوار - 26 نيسان 1973

يفقد اللبنانيون في الرئيس فؤاد شهاب، وجهاً مميزاً، من تاريخه القديم والحديث، وكأنه حدث ظهر في السياسة اللبنانية، يصعب تصوّر بروزه في بلاد كلبنان، ولم يكن له حزب، ولم يكن يعطف على أرباب السياسة او يوفّر لهم نقداً، ولم يكن يتصل بالشعب مباشرة، وكانت أبواب بيته معظم الأيام مغلقة في وجه القاصدين، ولكنه بالرغم من كل ذلك، كان انجذاب الناس اليه كبيراً جداً، كمن يهرب من درب الطبيعة فتسعى الطبيعة اليه.

وهذه الخاصة من مزاجه، تكونت من انتسابات عدة، منها، انتسابه من حيث الولادة الى عائلة أمراء حكموا لبنان وبقي لهم ذكرى هذا الحكم، ما يوافق الانسان من شعور مميّز عن الآخرين. وكان له من انتسابه الى العلم، على الصعيد العسكري والثقافي العام، ما يجعل لذوقه، ولشعوره ولتصرفه، لوناً مونقاً من الارستقراطية السليمة البسيطة في عفويتها، وكان له من انسابه الى السلك العسكري ما يضيف لوناً آخر من تميز القادة العسكريين على اعتبار الجيوش الحديثة امتداداً لمشاعر الشرف والشهامة، وكفاءة القيادة والترفع عن الصغائر التي كانت من صفات الشرفاء والنبلاء في عصر الجيوش الإقطاعية القديمة. وكان له اخيراً من انتساب والدته الى آل حبيش والغازن، ما يضيف على حديثه وابتسامته رونقاً خاصاً وسط النكات، والمداعبة التي كانت تحلو له في كل حين ولو كان جاداً في أكثر الأمور جدية وخطورة.

وكان رابط الجأش لا يحركه خبر، وهو في الآن نفسه شديد الإحساس، كثير الحياء، كالصبيّة، وهو يعرف ما يريد وكيف يريد - أي ما هي الوسيلة الى تحقيق الهدف - وهذا أمر قلّ ما يتوفر للسياسيين الذين لا يعيشون عادة إلاّ تحت سطح الماء.

أما هو فكنا نشعر وكأنه يعيش فوق سطح الماء، مرتقباً المقلب من الأيام، يرى ما لا يراه الآخرون. وهذه هي ميزة القادة الحقيقيين ان تكون لهم رؤية المستقبل، ان يتسموا بالحدس العميق لمصير الأشياء.

وكان ذا عقل حصيف يعرف كيف يحلّ المسائل مهما تعقّدت، وكيف يبسطها بإيجاز كبير، وكيف يردّ عليها، لأن التحليل العلمي الموضوعي وحده يمكننا من ان نعطي للقضايا حلولها الملائمة الثابتة.

ربما كان يخطئ أحياناً، ومرجع ذلك انه كان يتأثر الى حدّ كبير بسمع أذنيه ويصدّق ما يسمع. وفي لبنان، ويا للأسف، تعمر آفة الكذب كما لا تعشعش في أيّ بلد آخر، فكيف لا يصدق الصادق قول النمامين. ولكنه كان لا يلبث ان يصحّح ما سمعه عندما تبلّغه الحقيقة.

وكان شديد المعرفة بالرجال، من سماتهم يتبصّر في حقيقتهم وهي صفة ايضاً من صفات القيادة إذ انه كان يعرف كيف يختار معاونيه، والى ايّ وظيفة يصلح هذا او ذاك. وكانت له فكرة رفيعة عن واجبه الذي يقوم به بكل دقة وبكل أمانة، وبدون جلبه، بل يؤثر الصمت فيما يعمل على كل ظهور.

وقد تكون من صفاته محبة الاختفاء، والهرب من الظهور، والاحتجاب الدائم، فكان سرّه عميقاً، يقرّر ما يجب ان يتقرّر في الصمت وفي الهدوء، وبعد التأمل الناصت لتحليل يجري في عقله، فإذا تلفظ به كان الردّ الصواب.

قد يكون فاته معرفة فن السياسة الحقيقي، والقدرة على نظم الجماهير في تشكيلات تؤيد فكرته، وسعيه، وأهدافه. وقد كان فيه، ربما، خشية من مثل هذه المواجهة، وهذا التفاعل مع الناس. وقد يكون في حدسه ان الناس يجب ان تأتي اليه وان تختاره، لأنها تعلم بوجوده دون ان يكون بحاجة الى الخروج الى الناس.

وهذا التصوّر عطلّ، ربما، قسماً كبيراً ممّا كان يفكر بتحقيقه، لأن الجنرال ديجول نفسه، لولا الحزب الذي أنشأه او الأحزاب التي استند اليها لما كان استطاع ان يفعل ما فعل في تاريخ فرنسا، وفي ظننا ان الجنرال شهاب كان ترك أثراً أوسع لو انه ركّز كيان دولته على تأييد الأحزاب المنظمة التقدمية ولما كانت صارت هذه الردّة بعده التي تهدّد اليوم مصير بعض المؤسسات الادارية التي أنشأها. فالحزب هو مؤسسة بالنسبة للانسان وفكره، تبقى ولو ترك الانسان هذه المؤسسة، او تقاعد، او توفي.

وكان الرئيس شهاب متديناً ورعاً على الطريقة المسيحية القديمة، وكان مصدر أفكاره الاجتماعية هذا التدبّر وهذا الورع، بالرغم من انه في ظني وقف على مدخل الاشتراكية، ولكنه لم يلجّ اليها لأسباب تعود الى مزاجه وطينته. وهذه الألوان الثلاثة من أرستقراطية الفكر والشعور والعمر التي لبس حلّتها، فلم تفارقه، بل توحدّ بها. وكان هذا التوحدّ بالرغم من شعوره بشيء من الولاية النفسية، عقبة في طريق عبوره الى المطلق الأخير للوجود. ولذ كانت هذه الآنية المتبقية حلزماً بينه وبين الفكر الميتافيزقي او الصوفي المتطور، واكتفى بما وصل اليه، وبما جعل به حياته هنيئة وعائلته مطمئنة حوله، عزيزة عليه، وعزيراً عليها في أروع صورة المحبة الزوجية يعرفها الناس.

ولا شك ان هذه الوحدة الزوجية قد أثرت في حياته، وفي شعوره، وفي فكره، وفي تصرفاته أثراً كبيراً. وصفات الانسان وميزاته تكون عادة ملتزمة بما يراه في مرآة وجه المرأة، كان يبصر نفسه في عيونها وفي ملامح وجهها، وكان الوجه وجهان، وكان الوجهين وجه لواحد.

عرفت فؤاد شهاب منذ سنة 1943 تقريباً، وكنت أعجب بتواضعه الجَمّ الذي كان يرافقه دائماً لون من الرفعة والتميز في خلقه، وفي أخلاقه.

وكان هو يشعر احياناً بذلك، وبأنه على مثل هذا المستوى، فإذا بمرآة الأنا تقف حيناً حاجزاً لا يتعداه الى البساطة الأخيرة الصافية. ولكنه، في كل حال، كان ملح الرجال لو أدرك الناس قيمة هذا الملح بالعجين، وفي عجانة الدنيا.

وكان فؤاد شهاب يحتقر صغار النفوس، وأرباب التسلّط على المال من السياسيين، وكذلك لا يحب الخفة في الرجال، ولعلّ امتعاضه من هؤلاء قد أكسبه عداوتهم.

وكان من الصرامة في حياته الخاصة والعامة، بحيث انه لا يقبل بالالتواء والتزوير عند غيره، على ان من المفارقات العجيبة، في نظري، والتي لم أفهمها إلا في معيار الفصل احياناً بين تطلبات الملك ونجوى الملكوت. فإن هنالك أفعالاً كان يرتضيها من غيره ولو كانت منافية لبعض النواميس، ولعلّ معرفته بالناس كانت تدفعه الى عدم الإصرار عليهم، ومعاقبتهم كما يتوجب، ولكنه كان شديداً في ملاحقة الموظفين، يعلم ما للمراس والنظام من قدرة تربية بالنسبة للإنسان. اما في السياسة فكان احياناً يقبل من بعض المعاونين ما كنا نستغرب صدور عنه.

نضيف الى ذلك كله شعوراً أصيلاً بالديمقراطية ولكن على غير منحائها البرلماني القائم حيث تضيع المسؤولية بضياح القيادة، وهو في تفكيره الديمقراطي بقي لا يتجاوز حدود العائلات الروحية التي تتعايش في لبنان، ولو فكر احياناً بضرورة صهر اللبنانيين شعباً واحداً فيما يتعدى كل طائفية. على انه كان يحلم بنظام للحكم يعدل فيه هذا الدستور بشكل من الأشكال ليتمكن الحاكم من القيام بكل استقلال، بما يرتضيه للبنان من إصلاحات جذرية.

فؤاد شهاب مدرسة وأخلاق ونزاهة عميقة، وشرف أصيل، ووفاء للأصدقاء، ومحبة للآخرين. وهو لغز في آن واحد كجميع الذين دخلوا الى الحق تعالى من أبواب السماوات فظلوا في نعيمها يترفّهون ولم يَهْجِمِ الشوق الى الصيرورة في النار الأزلية.

Fouad Chéhab, le mal- aimé

فؤاد شهاب الحبيب الذي لم يعرف قدره⁽¹⁾

بقلم الوزير فؤاد بطرس

التاريخ حابكُ الأساطير ومفكِّها، لم يكن يوماً موضوع التماس ملحّ كما هي الحال منذ رحيل اللواء فؤاد شهاب.

فئة كانت حتى الأمس لا تزال تنكر السياسي، تبادر الى دفع الراحل الكبير في عالم المستقبل متوخية إراحة الضمير، وحلّ المشكلة من طريق استبعادها بإلغائها، في وقت واحد.

ولكن هكذا يمضي العالم، وهذه هي حال الناس مع العلم بأن الإعجاب الذي عبّرت عنه شرائح مختلفة من المجتمع، على الرغم من تسمّ العقول بعملية إزدراء منظمة، يفيد بأن نكران جميل الرجال العظام، ليس بالضرورة الضريبة التي يمكنهم توقعها، وبأن الإزدراء هو في خلاصة الأمر، سلاح ذو حدّين.

وفي بلد غالباً ما تطبع فيه المساواة العلاقات الإنسانية، وتشكّل فيه المحاباة شكلاً من آداب السلوك، كان من الصعب على فؤاد شهاب، وقد رُفِع الى القمة، ألا يعاديه قسم من رجال السياسة، ومن الرأي العام لا سيّما وان الرجل - في تحليلاته ومفاهيمه كما في أعماله السياسية - كان يتمتّع بسموٍ في الرؤية، وبعد نظر، اذا ما أضيف الى حصافته في الحكم، واستقامته الفكرية والأخلاقية، أحلّه في مستوى يشعر خصومه فيه بالإنزعاج بسبب تنشئتهم او نزعاتهم.

ولما كان متمرساً بالاستراتيجيات، فقد تخلّى بطيبة خاطر عن التكتيكيات لمن يتولّى التنفيذ، مكتفياً برسم الخطوط العريضة، والأغراض.

⁽¹⁾ ترجمة مقال نُشر بالفرنسية في جريدة "الصفاء"، 28 نيسان 1973، بمناسبة رحيل الرئيس فؤاد شهاب، منشور في مجموعة "كتابات في السياسة" لفؤاد بطرس، صفحة 33.

وان تبوأ مركز قيادة الجيش ملئياً ميلاً طبيعياً الى ذلك، فقد دُعي، - بفضل احدي الهزات السياسية التي اعتادها التاريخ - الى رئاسة الدولة. وقد وصل اليها بتيسير العناية الإلهية، الأمر الذي لم يغفره له خصومه.

ونظراً الى تركيب لبنان، وتاريخه، وجغرافيته - لم يكن هذا البلد يستطيع ان يواجه الاضطراب الذي رفع فؤاد شهاب الى أعلى منصب في الدولة، إلا بإرادة بنيه، بعض بنيه، وحكمة قادته. وقد وُجد فؤاد شهاب في ذلك الوقت بالذات، عند نقطة تقاطع مختلف العوامل الحاسمة. فنضجه، وذكاؤه، ووطنيته المستنيرة، وحسن إدراكه للواقع اللبناني، أمور أملت عليه سريعاً الموقف المناسب، الموقف الوحيد الذي كان ينبغي اتخاذه آنذاك. وربما أمّد له يد العون في ذلك، شيء من التأثير الوراثي المتمثل بالدم الذي يسيل في عروقه.

فمن هنا تولّد نوع من الرفض الضمني في بعض شرائح المجتمع تجاه خيار كان له - مهما قيل فيه - الفضل في المحافظة على مبدأ الشرعية، وتجنّب البلد تفككاً حقيقياً.

وللتوّ، دفع برجل السيف الى مقدمة المسرح، واتخذ صورة رجل الدولة. فبدأت بين فؤاد شهاب ولبنان، مغامرة صاخبة، تحفّ بها ردّات فعل عاطفية، وتقلّبات مزاجية، في عمقها مسحة تفهّم متفاوت في خفّته، ضخّم ثغراته. فما كان من ذوي البواعث المكتومة إلا ان ضخّموا الثغرات واستغلّوها استغلالاً ذا بواعث متنوعة ومتفاوتة في درجة الإعلان عنها.

وعلى التوالي، كان رقّاص ساعة العاطفة يهتزّ اهتزازاً متزايد الاتساع، حتى بلغ طرفي التحييد والاستنكار.

فلم ينجُ فؤاد شهاب، على غرار اي رجل سياسي، من الافتراء، والظلم. فكان يمكنه ان يردّد قول بول فاليري: "أذهلني خبث البشر، وأدهشني عدم تماديهم فيه أكثر ممّا تمادوا".

وكانت هذه الأمواج كلّها تأتي فتصطدم، وتتحمّط عند قوام رئيس لا يساوي عزّة نفسه إلا تواضعه، ويرى ان الشجاعة الحقيقية تقوم على المجابهة، من غير ان يرفّ له جفن، ومن غير ان يحيد عن الطريق التي اختطها. وعلى كل حال، فعلى الرجل الذي اختارته العناية الإلهية، ان يتقدّم في الغالب الجماعات التي يتولّى أمرها، من غير إسهامها، إن لم يكن رغم مقاومتها. ولم يشدّ فؤاد شهاب عن هذه القاعدة.

ولا يمكن التشديد بشكل كاف على مدى جمع الرجل بين صفة القائد، وصفة المرشد. فقد احتفظ من انتظامه في سلك الجيش، ومن التنشئة التي يدين له بها، بحسّ القيادة لديه، وتحفّظه في فعاليته.

وقد رأى ان الدولة لم تكن إلا في مرحلتها الأولية، فعزم على جعلها آلة حسنة التنظيم، في خدمة المواطن لا المحسوبيات. وكان يهتم على التساوي بمناطق لبنان كلّها، ولا سيما أكثرها غنياً، لأنه وعى تماماً ان التناقض والتمرد يتسعان من خلال الحاجة، وان العدالة الاجتماعية تقتضي الاعتناء عناية خاصة بمن هم الأكثر ضعفاً، والأشدّ حرماناً. ذلك انه رجل دولة لا رجل سياسة، وابتعد ما يكون عن الغش والتدليس، ولا تتلاءم الغوغائية مع طبيعته.

وإذا كان فؤاد شهاب استحقّ شكر وطنه فلأنه، نتيجة لاستشراف المستقبل بعد عقد او عدة عقود، كان يولي اهتمامه بالأجيال المقبلة ومصيرها. فكل ما قام به من إصلاح إداري، وتشريع اجتماعي، واقتصادي، او مالي، أتى تحت ذلك التأثير، ولا يمكن شرحه بطريقة اخرى.

سياسته الخارجية كانت تنزع، في نهاية المطاف، الى تأمين السلام والأخوة داخل حدود منطقة في غاية الغليان، حتى يتاح المجال لتحقيق الأغراض الوطنية، وتدعيم وحدة البلد. ولما كان لبنانياً عريقاً، فقد رفض دائماً ان يكون رافع لواء عشيرة واحدة، او طائفة واحدة او طبقة من الطبقات، بل كان معنياً بمشاكل الناس جميعهم، وبصعوباتهم. وكان بفضل مزاجه ووعيه الحادّ لدور الحكم الذي يمثّله، يكره ان يشعر بأنه اسير لأيّ مجموعة.

وفي ميدان السياسة الخارجية او العربية، حرص دائماً، من خلال تعاون مخلص مع الدول العربية والدول الصديقة، على المحافظة على موقف لبنان الذي تميّز، في وقت واحد، بعدم التورط في النزاع بين الأخوة، وبالتضامن معهم في كل ما يتصل بمأساة فلسطين.

فإن فؤاد شهاب كان جندياً من جنود الجمهورية، وأحد أنصار الديمقراطية. وربما جعله إيمانه بالمؤسسات يتألم من عيوبها وتقصيرها، ويتمنى بشدة ان يراها تتكيف، في نطاق الشرعية المؤسسية، وإجماع الأغلبية، مع مقتضيات التطور في عصرنا. وبيانه المشهور في آب 1970 شاهد لذلك.

وكان الرجل يخفي - ما وراء هذه الطاقة والمقدرة الكامنتين كلّهما، وخلف شيء من التحفظ بطبعه الحياء بطابعه - مروءة قلّ مثيلها.

وكان - وهو الجذّاب، الوفي، الصادق، الشديد الاحتشام في عواطفه والشهم - يجتنب غالباً الكشف عن دخيلة نفسه، بفضل نمط تفكيره، وأجوبته الفولكلورية الحاضرة، فكان على محدّثيه إدراك ما يستأثر باهتمامه، واكتشاف ما يشعر به. وقد حاول ذلك الكثيرون ولكن لم يفلح إلا من كان ذا حدس سليم.

وربما كان السؤال المثير الذي سي طرح في المستقبل بخصوص فؤاد شهاب هو التالي: الى أيّ مدى كان ابن التربة اللبنانية هذا حصيلة عصره، والى أيّ مدى سبقه كونه استطاع ان يتجاوزه؟

في ذكرى غيابه الثامنة والعشرين
فؤاد شهاب: إضاءات جديدة
بقلم باسم الجسر

جريدة النهار - الأربعاء 25 نيسان 2001

بعد مرور ثمانية وعشرون عاماً على وفاته، لا يزال اسم الرئيس فؤاد شهاب أكثر أسماء الرؤساء والزعماء تردداً على لسان اللبنانيين وحضوراً في أذهانهم. ولا نقول هذا من قبيل الانتقال من حق الرؤساء والزعماء الآخرين أو فضلهم، بل لأنّ ما مرّ على لبنان بعد رحيل الرئيس شهاب، من محن وحروب، يحمل، وبشكل عفوي، على تذكّر أيام العهد الشهابي وما رافقه من استقرار وطني وأمني.

وفي كلّ مرة يدور الحديث عن دولة المؤسسات أو عن الإنماء والعدالة الاجتماعية تتبادر الى الأذهان عناوين التجربة الشهابية في الحكم، والتي كانت اول - وربما آخر - تجربة تغلّب عليها همّ الإصلاح الإداري وإنشاء المؤسسات العامة الحديثة والتخطيط للإنماء المتكامل والعدالة الاجتماعية.

لقد بلغ عدد الكتب المنشورة عن حياة الرئيس شهاب في قيادة الجيش والحكم الخمسة، والطروحات الجامعية، العشرين. ونشأت، منذ ثلاث سنوات، جمعية باسم "مؤسسة فؤاد شهاب" تضمّ أربعين وجهاً من الوجوه السياسية والعسكرية والإدارية والإعلامية التي شاركت في التجربة الشهابية من مواقع مختلفة. وهي عاملة على إحياء ذكراه والتذكير بمبادئه وأفكاره وتجربته الإصلاحية الإنمائية، انطلاقاً من إيمان

أعضائها بأن هذه المبادئ والشعارات، لا تزال في جوهرها ومنطلقاتها وأهدافها، صالحة لمعالجة الكثير من المشكلات اللبنانية، الوطنية والسياسية والاجتماعية.

إلا أنني لن أتطرق، في هذا المقال، الى ما سمي إصلاحات الرئيس شهاب او إنجازاته، بل الى شخصيته. إذ أتيت لي ان أعمل في عهده مديراً للوكالة الوطنية للأبناء وان أجمع به، أيام حكمه وبعد انتهاء ولايته، كثيراً وطويلاً، وان أعرف كل الذين عملوا معه ابان قيادته للجيش وفي الرئاسة او معظمهم، فتوافرت لدي، مجموعة كبيرة من المعلومات عنه وعن تفكيره ونظرته الى الشؤون العامة. أتيت على ذكر بعضها في الكتابين اللذين وضعتهما عنه. وفي ما يأتي بعض لمحات وإضاءات جديدة او غير معروفة عن شخصية فؤاد شهاب، القائد والرئيس والأمير والإنسان، من خلال أحاديث سمعتها منه شخصياً او رواها لي بعض المقربين منه.

في مقابلتي الأولى معه، في مكتبه الصغير في قيادة الجيش (قرب المتحف الوطني) عام 1953، وفي معرض الحديث عن الجيش اللبناني، قال: "... لم يمرّ على نشوء الجيش اللبناني سوى سبع سنوات، وما زلنا في مرحلة بنائه. ولا بد من قواعد لبناء هذا الجيش الوطني الذي قد يكون دوره في لبنان أساسياً في بناء الوطن وتدعيم الاستقلال والوحدة الوطنية. ومن هذه القواعد تخريج طاقم من الضباط الأكفيا ممن يمثلون كل الطوائف والمناطق والعائلات اللبنانية. الكفاية والجدارة واجتياز الامتحانات هي الأساس لدخول المدرسة الحربية وللتقدم في الرتبة. لكننا نرحب بدخول أبناء الضباط الى المدرسة الحربية تماشياً مع مبدأ استمرارية التقاليد العسكرية. من الأباء الى الأبناء. كما نرحب، ايضاً "بأبناء العائلات" اللبنانية المعروفة التي تشكل "عقد" البناء اللبناني في انتظار ولادة "المواطن" او "الشعب" اللبناني، كما في الدول العريقة العهد بالاستقلال.

عندما استعيد هذا الحديث الذي سمعته منه، منذ نصف قرن، تتراءى لي أهميته مقارنة بالتجارب الانقلابية العسكرية التي شهدتها دول عربية وغير عربية في القرن العشرين على يد ضباط عقائديين او حزبيين. فهذا الجمع بين أصحاب الكفاية والجدارة، وبين ابناء الضباط، حملة التقاليد العسكرية وأبناء العائلات الكبرى الموثوقة سياسياً وتقليدياً من الأهالي، مع احترام التوازن الطائفي، كانت قواعد ذكية وحكيمة وواقعية - وطنية، لتركيز قيادات الجيش الوطني اللبناني الناشئ. هذا الجيش الذي بقي موحداً في ثورة 1958، يوم انقسم الشعب طائفياً.

وفي مقابلة اخرى معه، في قيادة الجيش، وكنت اول عهدي بالصحافة، طلب مني القيام بتحقيق صحفي عن أوضاع العشائر في جرود الهرمل. ونشرت صحيفتنا "الجريدة" و"الأوريان" التحقيق وصوره

في صفحاتها الاولى، وعرفت في ما بعد ان "الجنرال" قائد الجيش اراد من "افتعال" هذا التحقيق الضغط على رئيس الجمهورية، كميل شمعون للفقو عن ابناء العشائر الذين كانت صدرت بحقهم احكام بالسجن، كما كان وعده عشية انتخابه رئيساً. وملخص موقف الجنرال شهاب من قضية الفقو عن ابناء العشائر الملاحقين او المحكومين، هو ان بعض المناطق اللبنانية البعيدة عن العاصمة، تعيش في حالة تخلف كبير بسبب إهمال الدولة لها، وان الدولة تحاول فرض قوانينها على ابناء هذه المناطق في ما يتعلق بالمياه والأحراج وغيرها من القوانين سعياً وراء الرزق او دفاعاً عن النفس، مما يؤدي الى تنظيم مخالقات بحقهم ومن ثم تعقبهم فالاصطدام معهم، فمحاكمتهم وإصدار احكام غيابية بحقهم. وكان قائد الجيش يرى انه من الأفضل، بدلاً من أشغال قوى الأمن والجيش بمطاردة ابناء العشائر ان تهتم الدولة بمناطقهم اقتصادياً واجتماعياً، وتوفر لهم الماء والكهرباء والطرق والمدارس، قبل ان تحاسبهم على مخالفة القوانين من أجل العيش. ولسوف يتحول هذا "المنطق الاجتماعي الانساني" لدى فؤاد شهاب، بعد انتخابه رئيساً، سياسة اجتماعية وخططاً تنموية، أدّى تنفيذها الى اوصول الماء والكهرباء والطرق والمدارس الى ألفي قرية وديكرة في المناطق اللبنانية النائية عن العاصمة، والتي كانت محرومة منها.

وفي مقابلة اخرى، جرت صيف عام 1958، بعد انتخابه رئيساً وقبل تسلّمه منصب الرئاسة، ألمح لي بأنه "يفكر في تكليفي ببعض المهمات الاعلامية" وأضاف قائلاً: "... في لبنان، وخلافاً لما حدث في بعض الدول العربية، لا يمكن - ولا يجوز - التعرّض لحرية الرأي والقول والكتابة، وهي مكفولة في "الكتاب" (اي الدستور، كما كان يسميه، احياناً)، ولا فرض الرقابة الشديدة او الدائمة، كما في بعض الدول، رغم اننا في حال حرب (مع اسرائيل). ولكن الحرية الصحافية الواسعة أتاحت لدول وقوى سياسية اقليمية ودولية، فرص التأثير على وسائل الاعلام وعلى الاعلاميين، مباشرة، ممّا ادى الى انتقال كل النزاعات والحروب الباردة بين هذه الدول والقوى الخارجية الى داخل لبنان والى التأثير مباشرة على حياتنا الوطنية والسياسية، لا سيما عند امتزاجها بالانقسامات الطائفية. لذلك لا بد للدولة من حماية الرأي العام من هذه المؤثرات الخارجية ومن الدفاع عن نفسها وعن المصلحة الوطنية، وتالياً من ان يكون لها وسائل إعلامية حديثة وناشطة، لتكون حاضرة في الميدان الاعلامي ولموازنة المؤثرات الخارجية".

ومن هذا التفكير، انطلقت خطة تحديث "وزارة الأنباء" (كما كانت تسمى يومذاك) فأُنشئت الوكالة الوطنية للأنباء ومصلحة النشر والتوجيه، والاذاعة الكبرى. غير ان الرئيس شهاب، رغم حرصه على ان يكون للدولة "وجود إعلامي"، يدافع عنها ويشرح سياستها ويعرّف بإنجازاتها، كان حريصاً على حرية الاعلام وعلى تعدديته. واذكر في هذا الصدد حادثتين: الاولى، عندما طلب بعض الوزراء، عام 1962، إثر محاولة الانقلاب، سن قانون "مراقبة موارد الصحف"، على غرار القانون الذي سنّته الحكومة

الفرنسية، بعد تحرير فرنسا من الاحتلال الألماني، فتمهل الرئيس شهاب في إقراره، وكلف لجنة مشتركة مؤلفة من ممثلين عن وزارة الأنباء وممثلين عن نقابة الصحافة، لدرس إمكان تطبيق مثل هذا القانون. وعندما نقلت اللجنة إليه، بعد اجتماعات عدة، انه من الصعب سنّ هذا القانون وتطبيقه، لم يتردد لحظة واحدة في طي الحديث عنه.

وأذكر أيضاً انني عرضت عليه، يوماً، فكرة او مشروعاً كانت بعض الأوساط الصحافية تتناوله، في معرض "إصلاح" الأوضاع الصحافية، ويقضي بدمج الصحف اللبنانية الصغيرة، وغير القادرة على تمويل ذاتها، في ثلاث "مجموعات كبيرة" او أربع، كما هي الحال في دول عديدة، قادرة على الاكتفاء الذاتي وعلى رفع مستوى دور الصحافة والعمل الصحافي أبدى الرئيس شهاب تحفظه قائلاً: "ان دمج الصحف في ثلاث مجموعات او أربع كبيرة قد يكون له بعض الحسنات او الفوائد التي ذكرت ولكنه يقود أيضاً الى احتكارات إعلامية، تملكها قوى مالية معينة وتؤثر بها على السياسة والحكم لخدمة مصالحها الشخصية او الاقتصادية، وانه من الأفضل بقاء الصحف والمجلات "الصغيرة" في العاصمة والمناطق والتي هي أقرب الى المواطنين في التعبير عن أمانيتهم او الدفاع عن مصالحهم اليومية. وتحول دون حصر الاعلام الصحافي بثلاث مجموعات كبيرة او أربع تخدم مصالح داخلية او خارجية كبرى.

وبين الأمور التي أثارت الجدل حول الرئيس فؤاد شهاب سياسته الخارجية والعربية. فلقد اخذ عليه البعض تحالفه مع جمال عبد الناصر، او انحيازه اليه، عربياً وتعاطفه مع فرنسا او ايثاره التعاون معها دولياً، بدلاً من بريطانيا والولايات المتحدة. ومن أغرب التناقضات في الحكم على سياسته الخارجية واقتناعاته الوطنية في القومية اتهامه باتباع سياسة "انعزالية لبنانية جديدة" وبـ "لا صدقية عربيته". والحقيقة، كما سمعتها منه ومن أقرب الذين تعاونوا معه، بعيدة كلياً عن هذه "الاتهامات". لقد كان فؤاد شهاب "وطنياً لبنانياً" ولكن وطنيته اللبنانية لم تكن، في نظره، تتناقض مع المصلحة القومية العربية. لم يكن "قومياً عربياً" بالمفهوم الأيديولوجي للقومية، ولم يدع يوماً ذلك، ولكنه كان "وطنياً لبنانياً عربياً" بالمعنى "الميثاقي" لهذه الوطنية. وكان يتخذ من الشيخ بشارة الخوري ورياض الصلح قدوة في مواقفه من القضايا العربية ومن علاقة لبنان بالعرب والعروبة. وكان تقي الدين الصلح من أقرب المستشارين "الميثاقين" اليه، وكان كثيراً ما يستعين برأيه ونصائحه في ما يتعلق بالشؤون اللبنانية العربية. ولقد عبّر عن سياسته او مواقفه العربية في أحد أحاديثه لي قائلاً: "... في علاقات لبنان العربية والخارجية، تأتي مصلحة لبنان في الدرجة الأولى. وأولويات مصلحة لبنان، كما أفهمها، هي المحافظة على سيادة الكيان الوطني اللبناني واستقلاله، وعلى وحدة أبنائه الوطنية. وتأتي بعد ذلك المصلحة العربية. فإذا أجمعت الدول العربية على أمر، فلبنان ملزم بالتزامه. اما اذا اختلفت وانقسم الصف العربي، فمن مصلحة لبنان

ألاّ ينحاز الى هذا الفريق او ذلك، بل ان يسعى للتقريب بين الأطراف العرب، اذا استطاع. اما بشأن "مسايرتي" مصر وعبد الناصر وتعاوني الوثيق معه، فإنه ليس انحيازاً عاطفياً او لمصلحة شخصية او إعلان خصومة للأطراف العرب الآخرين المختلفين معه، بل لأن عبد الناصر كرئيس للجمهورية العربية المتحدة وكزعيم قومي عربي تتعلق به الجماهير في كل البلدان العربية، ونصف الشعب اللبناني، على الأقلّ. وهو يستطيع التأثير في لبنان بشكل أقوى بكثير مما تستطيعه الدولة اللبنانية في مصر او على الشعب المصري. لذلك فإن مصلحة لبنان، في الستينات، كانت في كسب صداقة عبد الناصر ودعمه للوحدة الوطنية في لبنان. ولم يطلب عبد الناصر مني في لقاء "الخيمة على الحدود" سوى التعاون الصادق والصريح بين بلدينا. فلا هو يتدخل مباشرة في الشؤون اللبنانية الداخلية، ولا نحن، من جهتنا، نسمح لأعدائه او أخصامه، باتخاذ لبنان مركزاً للتآمر ضد الجمهورية العربية المتحدة، او نتبع سياسة منحازة لأعدائه وأخصامه. ولقد أعطت سياسة العلاقات الصريحة والودية مع عبد الناصر سنوات عديدة من الاستقرار السياسي الوطني في لبنان. وأستطيع الشهادة بأنه كان حريصاً جداً على الوحدة الوطنية اللبنانية، ويعتبرها ذات أولوية. أما بالنسبة الى السياسة الدولية، فلبنان بلد ليبرالي، لأن الليبرالية الاقتصادية هي مصدر ثروته وازدهاره. وهو لا يتبع نظاماً اشتراكياً ليكون عضواً في المجموعة الاشتراكية الدولية. بل هو، طبيعياً، أقرب الى الغرب الليبرالي منه الى الشرق الاشتراكي. إلاّ ان هذا يلزمه بمناصبه العداء للدول الاشتراكية، ولا سيما الاتحاد السوفياتي. الدولة الكبرى. واما مسايرة فرنسا أكثر بقليل من مسايرة غيرها من الدول الغربية، فأمر طبيعي، نظراً الى وجود تاريخ طويل من العلاقات الفرنسية - اللبنانية، من جهة، ولأن فرنسا، من جهة اخرى، ولا سيما بعد عودة الجنرال ديغول الى الحكم، هي الدولة الغربية الأكثر انفتاحاً على العرب والأقل ارتهاناً او انحيازاً لاسرائيل".

ثمة مبدأ، لم يبرز كما يجب في تفكير الرئيس فؤاد شهاب ونظرته الوطنية والسياسية هو استنكاره بل استهجانه لاستعانة السياسيين والزعماء والأحزاب اللبنانية بدولة خارجية، إقليمية كانت ام أجنبية، للاستقواء على بعضهم البعض. هذه الاستعانة التي كانت تصل الى حد الارتهان او العمالة. كان يقول: "ان النزاعات بين الزعماء والأحزاب والسياسيين على الحكم والسلطة أمر طبيعي، بل ضروري في النظام الديمقراطي. لكن الاستعانة بالخارج على الأخصام عمل خطير. وفي بعض الحالات يدعى عمالة او خيانة. ترى ألم يدرك هؤلاء المستعينون بالخارج على أخصامهم ان الدول والقوى الخارجية تستخدمهم لخدمة مصالحها؟ وانها تعصرهم وترميهم كما ترمي ليمونة الحاض، بعد عصرها؟ أولم يفقد جبل لبنان ما كان له، أيام الامارة، من حكم ذاتي او شبه استقلال، بسبب دخول زعمائه في لعبة الدول واستعانة هذه الدول المتنافسة على الشرق بهم لتحقيق أغراضها؟"

لم يكن فؤاد شهاب منظرًا سياسياً، او عقائدياً، بل لم يكن، بأي شكل من الأشكال سياسياً محترفاً او طامحاً الى الحكم والسلطة. ولا يمتلك البلاغة الخطابية والظهور السياسي ولا صاحب مواقف تاريخية متحدية، تجتذب الجماهير، بل كان انساناً خجولاً، رقيق الحاشية، متواضعاً، زاهداً في المناصب والجاه والسلطة. قبل انتخابه رئيساً للجمهورية عام 1958 اضطرراً، لينهي الثورة التي قامت في لبنان. وأبعد كأس الرئاسة عن فمه أربع مرات: عام 1952، بعد استقالة الرئيس بشارة الخوري وتكليفه برئاسة الحكومة الانتقالية. ومرة ثانية عندما استقال عام 1960. وثالثة، عندما رفض التجديد له عام 1964، رغم إصرار ثلاثة أرباع مجلس النواب على التجديد. ومرة رابعة، عندما استتف عام 1970 عن ترشيح نفسه للرئاسة، وكان فوزه أكيداً، لو ترشح، في نظر أخصامه لا أصدقائه فحسب.

هل كان فؤاد شهاب عسكرياً اعتدت عليه السياسة والحكم، فأدى واجباته فيهما كما يؤديها الجندي؟ أم كان فؤاد شهاب اريستقراطياً ذا نزعة انسانية، ومتواضعاً، يتعاطف مع الفقراء والمظلومين ويأبى دخول هيكل "أكلة الجبنة" والمستغلين؟ أم كان طائراً غريباً عن فضاء السياسة في لبنان، حطت به الأقدار في موقع رئاسة البلاد، فأدى خدمته فيها، كما يؤديها الراعي الصالح، وكما يوحي اليه إيمانه وضميره وثقافته، ونصب عينيه الحفاظ على الوحدة الوطنية وتحقيق العدالة الاجتماعية وبناء دولة المؤسسات؟ ام كان انساناً زاهداً في الثروة والجاه والسلطة، يرضى بالعيش في منزل صغير بعيداً عن بهارج الدنيا ومغانمها؟

كان فؤاد شهاب كل هذا معاً. ولم يتح للبنانيين ان يكتشفوا ميزاته ودوره الكبير في تاريخ لبنان الحديث، إلا بعد وفاته.

الرئيس فؤاد شهاب كما عرفته

بقلم العميد الركن المتقاعد ميشال ناصيف⁽²⁾

⁽²⁾ ما أقنعتني في الكتابة إلحاح الصديق الاستاذ جورج مغامس الذي يجيد في توجيه شبابنا الواعد في أرجاء جامعة اللوزية التي يتردد صدى تمرسها في الثقافة والعلم والمعرفة بقاعاً لا حدود لها.

تعددت الدراسات والنقاشات حول الرئيس اللواء فؤاد شهاب وطريقة إدارته للبلاد وسعيه لترسيخ استقلال الدولة. وثمة أمور لا تزال قيد الجدل.

"كوني كان لي شرف الخدمة بقربه ضابط مرافق، فلعلّ من المفيد ان أعرض لوقائع خبرتها، مستمياً تمنّي هذا القائد الإنسان وزوجته الفاضلة عنراً بالألّ يؤتى على ذكر هذه الوقائع من قبل المقربين، بل ان يترك أمر الحكم عليها للتاريخ... وذلك استخلاقاً لعبر في سبيل بناء دولة سيّدة حرة مستقلة ولتحقيق الصالح العام لجميع أبناء الوطن.

وان ما سأرويه قد لا يقنع فئة من اللبنانيين: إلاّ أنني، وطوال تمرّسي المسؤوليات المختلفة، لم أقف إلاّ عند الحقيقة التي أراها.

حكم اللواء شهاب، فعلياً، مدة وجيزة، لم تتعدّ السنوات الخمس، إذ انه عمل، في أوائل عهده، على تهدئة البلاد من جرّاء أحداث 1958، ثم اصطدمت عجلة حكمه، لبعض الوقت، بمحاولة الانقلاب عام 1962.

آمن فؤاد شهاب بالتطور Evolution، فكان بعيداً كلّ البعد عن مفاهيم الثورة Révolution، وهو ديمقراطي في تفكيره ونهجه، في جميع حقول العمل التي خاضها في لبنان، بلد تعدّدية المآرب والطوائف، والذي لا حياة مستقرة فيه إلاّ بنظام حرّ تسوده المبادرة الفردية.

فؤاد شهاب الإنسان والعائلة:

هذا اللبناني الكبير، العصامي والأنوف والمثالي في حياته الخاصة والعامة. نشأ في بيت لبناني عريق، بكنف حنان والدة جليّة، وبعهدة أحوال ذوي أصالة تاريخية. وتميّز، منذ نعومة أظافره، ورغم ضائقة مالية أحاقت به، بالإباء والشهامة والترفّع عن الماديات. وأظنه لم يسع يوماً للظهور والبهرجة: فأعماله ورسائنه وأخلاقه الحميدة تشهد له. وها نحن، بعد ثلاثين سنة على رحيله، نذكره بالخير ونستشهد بإنجازاته واحترامه للقانون ودأبه على بناء الدولة.

لم تبهره السلطة، فكان متواضعاً وقنوعاً، يثابر على نسق معيشي واحد، اتصف بالبساطة والوقار. لم أراه يوماً من دون ربطة عنق. أبي سكنى القصور. منزله في جونيّه، والذي ورثه عن أمه وأخواله، يتألف من ثلاث غرف وصالون ومكتب. أثاثها عادي جداً، ولكنها مزدانة بتحف ثمينة كمثل لوحات زيتية لصلاح الدين الأيوبي والأمير بشير الثاني الشهابي والشيخ طالب حبيش (جده). وصور موقّعة للبابا بولس السادس والرئيس ديغول والرئيس كندي، فضلاً عن أيقونات ولوحات دينية. وهو كان يكفي حاجات بيته

(بما فيها من رسوم كهرباء وهاتف وماء... مع انه معفى منها بموجب القانون) من مرتبته الخاص. ويشرك به الفقراء ودور العبادة وبعض المؤسسات الاجتماعية.

طعامه كان ممّا تعدّه زوجته. ولا يغادر المنزل إلاّ الى واجب الخدمة او زيارة بعض الأقارب والكنائس. فلم يشارك يوماً في مهرجان او مناسبة ترفيهية خارج نطاق مقتضيات البرتوكول والدواعي الوطنية.

أمّا جليسه فيتهدّب ان يبادره بموضوع لا يمتّ الى العمل بصلة. واذا استذكرنا، بالمناسبة، حيثيات مقابلته مطلع عام 1959 للزعيم العربي جمال عبد الناصر، رئيس الجمهورية العربية المتحدة آنذاك (مصر وسوريا)، على الحدود اللبنانية السورية، فلكي نذكر بأنه لم يقم بأية زيارة الى الخارج تحاشياً لإثارة الحساسيات الكامنة في مشاربنا.

وهو مؤمن، راسخ الإيمان، يحترم ويجلّ الأديان السماوية، فلم يعرف التعصب اليه سبيلاً، وقد كرمّ العذراء مريم، فوضع صورتها او تمثالها على مكتبه في البيت وفي القصر، وأثار مقامها في حريصا من ماله الخاص طوال أيام رئاسته. وكان يومياً، وهو في طريق العودة من العمل الى البيت، وكلّما بان تمثال سيدة حريصا من بين أشجار الطريق، يحني رأسه خشوعاً ويتمتم صلاة، وكم زار معابد العذراء، برفقة زوجته، في مختلف مناطق لبنان.

صحيح ان بعض الفطور شاب علاقته ببعض القيّمين على بعض المقامات الدينية، إلاّ ان احترامه لهذه المقامات لم يزعزه شيء، وهنا أتذكّر كيف انه أصدر الأوامر جازماً بإبعاد جميع الحواجز العسكرية عن كرسيّ بكركي، إثر لجوء بعض قادة القوميين اليه بعد فشل انقلابهم عام 1962، وفتح الطريق لهم لإخلائه.

نعم. لقد تحمّل الرئيس شهاب أوزار الحكم في لبنان بمسؤولية وضمير حيّ. فكان يعمل لا أقلّ من اثنتي عشرة ساعة في اليوم. فبعد انتهاء المقابلات في مقرّ الرئاسة، يعود الى بيته لينصرف، بعد استقبال بعض أفراد العائلة ولوقت قصير، الى البريد اليومي الذي يصله من مختلف الوزارات والمؤسسات فضلاً عن مكتب الرئاسة، يقرأ ويدرس ويدوّن ملاحظاته وتوجيهاته ويطلب الإفادة عن النتيجة. وهنا تحضرني القضية الآتية:

عام 1963، تأسّست في بيروت جمعية خيرية لإيواء الأيتام. وقد طلب رئيس وزراء سابق ان يرعى ويحضر الرئيس شهاب حفل الافتتاح... الرئيس شهاب قبل الرعاية فقط، وفقاً للعرف المتبع... حاول

رئيس الوزراء، وكان على احترام كلّي لشهاب، معاودة الطلب، وقد طلب إليّ شخصياً تذكير فخامته بذلك. تحيّنت الفرصة وكرّرت "بتأنّ" رغبة رئيس الوزراء، فأجابني الرئيس وبطريقة الأمر الناهي:

Je suis là pour gouverner et non pas pour régner وإذا كنت يا خواجاء، ولها معنى péjoratif بالنسبة لي كضابط، لا تدرك الفرق ما بين gouverner و régner، ففتش في قاموسك... وإذا قبلت دعوات شتى فمن يقرأ ويحلّل البريد "الما شاء الله" الذي تحملونه إليّ كل يوم... افهموا للمرة الأخيرة طريقتي في العمل. (انا شخصياً فهمت).

لقد عاش الرئيس شهاب في عالمه المثالي، برفقة زوجة صالحة هانئة، قاسمته الحياة كما أراد. ركن إليها وأخذ برأيها، فكانت له المعين في عمله الوطني فلم تشأ الظهور، وهي الفرنسية المولد، لئلا تؤثر في مساره الوطني. لقد أحببت المطالعة والمعرفة كزوجها، وكثيراً ما كانت تلخص بعض التقارير والكتب الفرنسية. كما كان يطلب مني أيضاً تلخيص بعض مقالات الصحف الأجنبية كجريدتي Le Monde و La Croix. وكان لقرينته كذلك، مع "سلطة روحية عالمية"، الدور الفعّال في إقناعه بالعودة عن استقالته عام 1960. وقد أحببت الست روزيت لبنان والجيش اللبناني الى حدّ لا يوصف، وتألّمت إبان أحداث 1975 وما بعدها. ثم احترمت ذكرى زوجها وسهرت على ترميم مدفن العائلة في غزير. ولم تغادر جونه يوماً إلا لزيارة الضريح او لحضور قداس على نيّة الراحل فؤاد، وحاولت ان تكمل عمل الإحسان بما تيسر لها من إمكانات مادية، وحافظت على وصيته، ونظمت وصيتها⁽³⁾ على غرار ما جاء في الوصية الأولى...

فؤاد شهاب لم يمتلك الأموال المنقولة او غير المنقولة. فقط حافظ على ما ورثه من عائلته، وأعاد الوزنات الى الورثة، مع ذكرى نبيلة مشرّفة لكلّ منهم .

وما تجدر الإشارة اليه ايضاً هو ان شقيقه، الموظفين في الدولة، ظلّ من دون ترقية او تمييز.

وبعد تفعيله لمجلس الخدمة المدنية وتعيين قاضٍ نزيه في رئاسته، أتته يوماً سيدة مسنّة من ذويه مع بعض أقاربه طالبة اليه تعيين اثنين منهم: الأول محافظاً، والثاني قائمقاماً. كان يجلّ هذه السيدة، ولا سيما انها ساعدت والدته وأخواله في تربيته مع أخويه القاصرين... فوعد بالخير. لكنه أجاب بعد يومين بأنّ لا مانع لديه من التعيين، إنما عليهم إقناع ابن خالتهم رئيس الخدمة المدنية الشيخ فريد الدحداح المتمسك ابداً بالنظام والقانون، فالمرشحان لا يستوفيان شروط التعيين كمحافظ او قائمقام. وبالطبع لم يتمّ التعيين لئلاً يخالف الكتاب.

⁽³⁾ عيّنت مدام شهاب العميد ناصيف منفذاً لوصيتها. وقد قام بالواجب في حينه بإشراف الوزير الأستاذ فؤاد بطرس.

فؤاد شهاب والهندية:

في أوائل العشرينات، دخل الأمير فؤاد عبد الله شهاب الى المدرسة الحربية في الشام، وتخرّج منها ضابطاً مقاتلاً طليعاً لدورته Major de Promotion وقد خدم ايام الانتداب الفرنسي، وطوال عشر سنوات ويزيد، في فرق جيش الشرق Troupe spéciale du Levant، في سوريا ولبنان، فاشترك في عمليات حفظ الأمن، ما أتاح ان يرقى الى رتبة نقيب ويمنح أوسمة عسكرية، ومنها وسام الحرب. وفي هذه الأثناء اقترن بالآنسة روزيت، ابنة الكولونيل بواتيو Boitiou. ثم أصبح اول ضابط غير فرنسي يتسلّم قيادة وحدة مستقلة في راشيا الوادي، وبإمرته ضباط وجنود فرنسيون. ومن ثم أصبح ضابطاً قائداً معاوناً لقائد الفيلق المتمركز في مرجعيون. وخلال العام 1939، سمي لمتابعة دورة الأركان العليا في فرنسا. لكنّ نشوب الحرب أعاده الى لبنان، فعين في أركان جيش الشرق ببيروت، حيث عمل في الشعبة العمالية التي يرأسها الجنرال ديغول، لمدة خمسة أشهر. ولمّا نال لبنان استقلاله، عين قائداً للجيش، ورفي الى رتبة عميد فرتبة لواء.

وفي الخمسينات، وكنت من ضباط المدرسة الحربية ثم الوحدات القتالية، كناً، كضابط، في الغالبية المطلقة، نحترم قيادتنا ونجلّها في شخص اللواء شهاب، لنزاهته وتجردّه وحسن إدارته.

...ومرت الأيام، وانتخب اللواء رئيساً للبلاد. وعيّنت في اول الستينات، ضابطاً مرافقاً له. وحين تقدّمت منه، بادرني بالسؤال: "أتعلم من أتى بك الى هنا؟" ومن دون ان ينتظر جواباً، أضاف: "إضبارتك Ton dossier. وعليك ان تعلم بأنّ هنا ثكنة كباقي الثكنات العسكرية، مع اختلاف قليل في العمل. فإذا مشي الحال بتضلّ، وإلاّ تعود الى ثكنة اخرى... ولا فرق".

ويبدو ان بعض التأثير بان على وجهي! وهكذا بقيت الى جواره، وبعلم رؤسائي العسكريين، حتى وفاته، بل وفاة زوجته ايضاً. وإنّي أعتبر ما قاله لي يومها أهمّ شهادة أنالها في حياتي.

عام 1969، عندما كنت رئيس شعبة العديد في قيادة الجيش باليرزة، كلفت بمهمة استطلاع حيثيات تطبيق التجنيد الاجباري في فرنسا، فتسنى لي الإطلاع على بعض إضبارات Dossiers الضباط اللبنانيين الذين خدموا في جيش الانتداب، ومنها إضبارة النقيب فؤاد شهاب. وقد جاء فيها: "ضابط مميز، محترم، ذو مقدرة على التحليل والاستنتاج، ويتفهم واقع المهام التي يكلف بها. يحب المطالعة... ولم يكن يوماً ممالئاً لسلطة الانتداب N'a jamais été avenant، بل ينزع الى الاستقلالية... وينتظر ان يكون له مستقبل واعد..."

هذا التقييم سرّي للسلطات الفرنسية وحدها، ولا يسمح لأصحاب العلاقة، بالاطلاع عليه.

ولدى عودتي الى لبنان، أطلّعت على ما اطلّعت عليه، فوجم قليلاً وقال: كُنّا ندرك بأنّ ثمة تقييماً لكلّ منّا، إلّا انه سرّي وبتصرّف القيادة الفرنسية فقط. وأضاف انا دائماً مع أبناء وطني من أية منطقة كانوا.

فؤاد شهاب رجل التنظيم والمؤسسات:

كان فؤاد شهاب في رئاسة الجمهورية كما كان في قيادة الجيش. يعمل على رأس هرم منتظم، محدّد المهام والصلاحيات، ولا يتخذ قراراً إلّا بعد دراسة وافية، قانوناً وإنماء وواقعية.

نظّم رئاسة الجمهورية وفق متطلبات العمل، فإذا هي من حيث المبدأ أشبه بتنظيم القيادات العسكرية، اي الأركان، فاستحدث ثلاث مديريات عامة، أقام على رأس كلّ منها قادة أكفيا، تميّزوا بالعلم والشخصية والمصادقية... حتى ان أحد الوزراء الكبار كان يقول بأنّ المرسوم يمرّ، اذا اقترنت التوافيق بإشارة الوزير الخامس عشر، اي المدير العام المسؤول في رئاسة الجمهورية، غير ان هذا الأخير لا يضع إشارة موافقته إلّا بعد موافقة الرئيس شهاب. وهكذا الأمر بالنسبة الى سائر مؤسسات الدولة الأساسية كالخدمة المدنية والنقش المركزي والمصالح المستقلة... وقد وثق الرئيس شهاب بمعاونيه حتى ثبوت العكس، وكان من الصعب جداً ان يغيّر رأيه في شخص تعاون معه.

في أداء مهامه الرئاسية، خصّص ثلاثة ايام من الأسبوع لاستقبال السفراء والنواب والشخصيات الدينية والديبلوماسية، ويوماً لمجلس الوزراء، ويوم الخميس لدراسة المشاريع ومخططات الإنماء في منزله مع كبار المسؤولين والخبراء، ويوم السبت لاحتياطيّ العمل، ويوم الأحد لعائلته ولاستكمال بعض الدراسات ولمطالعته الشخصية.

ولأنه لا يلمّ بجميع المواضيع كما كان يصرّح، فقد كان يستعين بالخبراء والاختصاصيين، ولا سيّما الأجانب منهم اعتقاداً منه بأنّ لا مصلحة شخصية او عائلية لهم في لبنان. وقد حباه الله حساً رشيداً Bon sens ومقدرة على التحليل خوّلاه اتخاذ القرار الأصح في أيّ موضوع.

أخذ على الرئيس شهاب تشاؤمه في بناء الدولة، ولا سيما لدى تعاطيه مع بعض السياسيين التقليديين. لكن ذلك التشاؤم ظلّ بناءً وفاعلاً ومجدياً. فقد عمل حتى نهاية عهده من دون كلل او تباطؤ. احترم الدستور ونظّم العمل الديمقراطي، وإذ قبل رئاسة الجمهورية عام 1958، فعلى مضض، خشية ان تراود عقول بعض الجند أصداء السلطة فيقع لبنان في سلسلة تغيرات وانقلابات، وهو بلد النظام الحرّ، فنقضي على الوطن نهائياً.

إني مؤمن بهذه النظرية، بعد درس تلقّنته، على مدى شهرين، من الرئيس شهاب بالذات، إثر محاولة انقلاب عام 1962، وما زلت حتى اليوم، وبالرغم ممّا أصابنا من مأسٍ على مدى نحو عقدين على قناعاتي هذه.

ومع احترامه للدستور وللمؤسسات كان الرئيس شهاب يأخذ بعين الاعتبار واقع كل منطقة من لبنان، وكنّ على معرفة بحاجات كل منها، إذ انه عاش، قبل تسلّمه مقاليد القيادة، في الشمال والبقاع والجنوب. وقد آلمه التخلّف في المناطق النائية على جميع الأصعدة، فصمّم على الإنماء المتوازن، وسعى الى تأمين الحاجات الضرورية وتحقيق البنى التحتية هناك، وعندها يطالب أبناء هذه المناطق بتأدية موجباتهم تجاه الدولة. وهكذا نحدّ من الفقر، وبالتالي من الإخلال بالأمن... وهنا تحضرنى هذه الواقعة:

إثر محاولة الانقلاب عام 1962 وتوقيف الكثير من المشتبه بهم في هذه المحاولة، ورد بين المطلوبين اسم ابن مصطفى طعّان دندش (أبو مشهور)، وهو زعيم في العشائر. علم أبو مشهور بالأمر وأسرع في طلب موعد من اللواء شهاب، وكان على معرفة به إثر أحداث العشائر في البقاع عام 1948. حدّد الموعد للسيد مصطفى، وقبل مقابلته الرئيس، جلس في مكثبي منتظراً. سألته، وكنت على معرفة به أيضاً، عن تصرفه في ما لو كلفت بتوقيفه في بقاع الهرمل... انتفض لتوّه قائلاً: "ذلك غير ممكن قطعاً. انا لا أعود الى الهرب من وجه العدالة كالسابق طالما أني أنال حقوقي. أمّ مشهور تعيش معي في منزلي المجهّز بجميع وسائل الراحة، وبناتي يتعلّمن في مدرسة الراهبات، وابني مشهور الذي تطلبونه يتابع دراسته الجامعية في بلجيكا، وتريدني ان أرجع الى حياة الشقاوة؟ نحن سكان المناطق البعيدة ننال حقوقنا من دون منّة، ونحن من أبناء هذا الوطن المخلصين، كلّ ذلك بفضل هذا الرئيس النبيل!

قبل استقبال أبو مشهور، أفدت الجنرال، وهي تسمية محبّبة الى نفسه بدل فخامة الرئيس، بما جرى... فنظر إليّ ملياً من دون تعليق، ثم قال: فليتفضّل أبو مشهور.

في نهاية المواعيد استدعاني الجنرال وشرح لي بأنّ أمنيته ان يصل كلّ ذي حق الى حقه، وسيسعد عندما تتفدّ برامج الإنماء التي يعدها، وفي كل بقاع لبنان، وفي كل حال هو مع درهم الحق أينما كان.

كان الرئيس شهاب يأنف من سفك الدماء. نعيم في أعماقه بالرحمة والرأفة. وحرص ان يحافظ على حياة كل مواطن، ولا سيما جند لبنان، اما اذا دعت الحاجة فيأمر بالقوة لتثبيت النظام. وقد أبى ان ينصاع لأية سلطة او دولة مهما عظمت. هو رئيس البلاد المستقلة، يمثل السيادة الكاملة، يتعاطى مع سائر الرؤساء من النذّ للنذّ، يتعاون مع ممثلي الأمة باحترام كليّ. وكان يعلم بأنّ رئيس جمهورية لبنان لا يمكنه، بحكم الواقع الديمغرافي سوى توقيع مرسوم واحد هو استقالته. وبخلاف ذلك، يلزمه توقيع سلطتين

آخرين على الأقل لإمكانية التنفيذ، فبسبب هذا الواقع، عمل فؤاد شهاب بتعقل وتؤدة، فمئسى لبنان في طريق السلام والازدهار.

أذكر انني، ليلة محاولة الانقلاب وبصعوبة كلية، كنت مع شقيقي العميد جان، أول الواصلين الى منزله فجرأً. وكنت، بعيد منتصف الليل، من أوائل المتصلين به مفيداً عن هذه المحاولة. وفي لحظة لقائي به بادرنى قائلاً: لا أريد ان تسيل نقطة دم واحدة من أي فرد من لبنان. إني مستعد للذهاب مع الانقلابيين... وليكن ما يكون... حاول ان تهدئ من حماس قائد الحرس والخ... أحبته فوراً Mon général كل منا يقوم بواجبه. أنا مرافق لك، ومن مهماتي الدفاع القريب عنك... اما قائد الحرس، العميد صادق رعد، وكان مندفعاً وصادقاً للغاية، فسمع كلام الرئيس وراح يصرخ من جنيئة المنزل: كل واحد منا بينفذ ما هو مطلوب منه، رئيس الجمهورية يشغل كرئيس وانا قائد الحرس، ما في غير الروح القدس بيخش هالأرض...

ابتسم القائد وأعاد الكرة بأنه لا يريد سفك الدماء.

فؤاد شهاب وبعده الاجتماعي والإنمائي:

أدرك الرئيس شهاب بأن لا ديمومة للبنان سوى بالعمل الإنمائي المستمر. فالشهابية ليست عقيدة او فلسفة سياسية، بل هي مجموعة دراسات ومناهج وخطط تفي بحاجة المواطنين لأمد طويلة، وهي عمل متواصل دؤوب ضمن إطار من القوانين والمراسيم المستحدثة، أنجز منها ما أمكن أثناء الولاية الشهابية، ويا حبذا لو ثابرت الدولة من بعده على إكمال هذه المشاريع (تقرير إرفد) لربما تلافينا الكثير من الأحداث الأليمة التي مزقت أوصال البلاد.

أريد ألا أسترسل في نظريات تبحث في طرق الإنماء، بل أكرّر ما قلت من أنني سأروي بعض ما عشته ولاحظته في نهج الرئيس شهاب.

في ربيع 1961، أراد الرئيس شهاب الانتقال الى الجبل، لأن قرينته يؤلمها الحرّ والرطوبة. فتمّ استئجار منزل في عجلتون، زاره الرئيس مستطلعاً، وفي طريق العودة الى جونييه، مروراً بقري المنطقة، لأن الأوتستراد كان لا يزال قيد الدرس، وكانت وزارة الأشغال قد نشطت بالطبع في تأهيل الطريق القديمة لأن الرئيس سيسلكها... أخطر الجندي السائق بتخفيف السرعة بسبب البلوكاج، وإذ بعامل من الورشة ينادي الرئيس ويستغيث بأنه رب عائلة من سبعة أشخاص وما يتقاضاه كميّاوم لا يكفي إلاّ لقمة العيش. سمع له الجنرال. ثم أمرني بأن أجمع به لاحقاً وأقدم له مبلغاً من المال كمساعدة... أجبته: سيدي، لقد سلّمت ما خصّصته من مساعدات لمن سمّيتهم، ولم يبقَ معي أيّ رصيد، وسأعيد الكرة في

الشهر المقبل بناءً لطلبكم. فقاطعني قائلاً: "إنك على علم بأن زيادة طرأت على مخصّصاتي كرئيس. فيمكننا التصرّف بهذه الزيادة. على كلّ، انا لن أتناول قطعة بفتاك أكبر، وزوجتي لن تتوّع في ملابسها. هذه الزيادة سأرى لمن أوصي بها. وجم قليلاً ثم استترّد: أمنيّتي الكبرى ان أجعل كل لبناني مكتفياً بما ينتج، وسعادتي ستكون كاملة يوم يتحقّق مشروع الضمان الاجتماعي في لبنان.

وفي الواقع، يوم إقرار الضمان في لبنان، زار الرئيس شهاب القصر الجمهوري في بعبدا، مدوناً شكره للدولة في سجل التشريعات.

عام 1965، وكنت ضابطاً في أركان القيادة، كُفّفت بمهمة تفقّد مراكز الجيش المتقدّمة في الجنوب. وقبل وصولي الى قرية ميس الجبل الحدودية، شاهدت ورشة أشغال على الطريق الفرعية وساحة عامة مؤهّلة تحيط بها الأشجار النضرة، وإذ بتلامذة مدرسة رسمية في فرصة الساعة العاشرة، ومعهم بعض الأساتذة. تحدّثت الى مدرّس منهم منوّهاً بالمشاريع الإنمائية التي تتفدّ في القرية، ومشيراً الى ان نواب المنطقة ناشطون في هذا المضمار، فأجاب المعلم فوراً: كلا، نحن لا نعرف نوابنا، إنما نعرف رجل دولة زاهداً فكّر فينا وفي القرى المجاورة، من دون منّة، وهو الرئيس السابق فؤاد شهاب. فقد تحقّق لنا في عهده الطريق والمدرسة وشبكة الكهرباء، والآن يحفرون لجرّ مياه الشفة، وقريباً سنحصل على الهاتف... فؤاد شهاب ومشاريعه جعلتنا نشعر بأننا لبنانيون.

خطّط فؤاد شهاب لإنماء المناطق جميعها، وسعى الى تحقيق اللامركزية الإدارية والاقتصادية، ولربّما خصّ قضاء كسروان باهتمام خاص من خلال مرفأ جونيّه والأوتستراد... لكنه صمّم أيضاً لتأهيل المرفأ اللبناني من الشمال الى الجنوب. وحقّق طريق تمرّ من إهدن وبشري وأرز تتورين واللقوق وأقفا وأمّهز والقلبيات وبكفيا والتمن الأعلى، الى المديرج وبيت الدين فجزّين فوادي البقاع، فإلى مرجعيون في أقصى الجنوب. وسعى لإيجاد استقلالية اقتصادية لكل منطقة، وحدّ من الهجرة حتى في الداخل، مع مجابهته الصعوبات، التي ما انفكّ السياسيون التقليديون يفتعلونها. لقد أراد ان يبقى أهل الريف في قراهم وأرضهم. وان يحول دون قيام حزام الفقر حول المدن ولا سيما بيروت. شجّع الصناعات الحرفية في هذه القرى وأوجد أبواب التسويق لها (مشروع زراعة دوّار الشمس مكان حشيشة الكيف)، وأنشأ مصالح رسمية مستقلة لتلتقي معوقات الإدارة، مؤمناً أسواق تصريف للإنتاج الزراعي والحرفي اللبنانيين ومنها مكتب الفاكهة والمشروع الأخضر ومكتب القمح ومكتب الشمندر السكري... ثبّت الأمن في الجمهورية، بالرغم من أحداث هامة حصلت في الجوار العربي، إذ عندما يستتبّ الأمن تقدّم الرساميل الأجنبية، وتقام المشاريع الإنمائية التي توفّر أبواب العمل للمواطنين.

كان الرئيس شهاب يردّد باستمرار بأن الواجب الوطني يقضي بإيجاد لا أقلّ من عشرين ألف حقل عمل للشبيبة الطالعة سنوياً، فعندها نحدّ من الهجرة، ولا سيّما هجرة المثقفين والاختصاصيين والحرفيين. أراد الرئيس شهاب المحافظة على البيئة وعلى جمال أرض لبنان الطبيعي، فأولى اهتماماً خاصاً للتنظيم المدني، ولا سيّما على الشواطئ. ولم يسمح قطعاً بالتعدّي على الأملاك العامة، ومنها الأملاك البحرية، مهما كان السبب. والكثير منّا يعلم كيف تمّ هدم غرفة أقيمت على شاطئ المتن الشمالي بحماية بعض المترعّمين.

اين نحن اليوم من الإنشاءات البحرية التي كست وشوّت شاطئنا المتوسطي، والتي الى الآن لم تفِ بما عليها من رسوم للصندوق العام؟

في ربيع 1964، وقبيل نهاية ولاية الرئيس شهاب، كنت من القلائل الذين على اطلاع بعدم إمكانية تجديد او تمديد الولاية. ولذلك طلبت إليّ قرينته ان أسعى لشراء سيارة جديدة "راكزة" sobre نوعاً ولوناً، تحضيراً لمرحلة التقاعد النهائي. فتمّ شراء سيارة شيفروليه Chevrolet، سجّلت سرّاً باسم اللواء فؤاد شهاب، باهتمام من المرحوم الرئيس الياس سركيس، مدير عام الرئاسة آنذاك. وقد دفعت الموجبات المالية كاملة، مع ان رئيس الجمهورية معفى من مختلف الرسوم، بموجب الأنظمة المرعية.

عام 1967، عينت في قيادة الجيش، في وظيفة تعنى بشؤون جميع العسكريين، وقد شغلت هذه الوظيفة حتى نهاية 1970. وأشهد امام الله بأن الرئيس شهاب استفسر مني مرة واحدة فقط عن إجراء عسكري محض، فأجبتّه بأنّ قانون الجيش مع تعليماته التطبيقية يقضي بهذا التدبير ليس إلّا. عندها بدأ مطمئناً satisfait، مردّداً: حافظوا على الكتاب واحترموا. أما الذين راجعوني في الموضوع، فهم جهلة لا يحترمون النظام.

أول صيف 1970، وكان الرئيس شهاب ما زال على موقفه وعزوفه عن الترشيح لرئاسة الجمهورية، تحدثت اليه مفيداً بأن الوضع العام ينذر بأحداث خطيرة: الانتقادات تطل الجيش وتؤثر على معنويات الجند، ولربّما ندخل المجهول... كنت متيقناً بأن أكثرية مطلقة ستنتخب مجدداً اللواء فؤاد شهاب، وأولهم كتلة المرحوم الرئيس سليمان فرنجيه... فأجاب مقاطعاً بالنفي، وبأن مرشّحه هو الأستاذ سركيس... ثم أضاف: انا يا ابني، عندي برنامج للإنماء يقضي بتغيير سبل الحكم كلياً، ولا يمكنني تحقيقه إلّا بالطرق الديمقراطية، أي بموافقة مجلس النواب، ومع الأسف، لا يزال الشعب اللبناني متمسكاً بزعمائه التقليديين، فلا إمكانية لهذا التغيير قبل 25 سنة Une génération (وقد شرح نظريته هذه في رسالته الهامة بتاريخ

4 آب 1970). ثم ذكرني بتصرف أحد الوزراء أيام حكمه، مركزاً على ان العقلية السائدة هي تجاوز القوانين والأنظمة. أما ذلك التصرف فقد حصل كما يأتي:

عام 1962، أمّن برنامج النقطة الرابعة للبنان منحة تخصص مهندس زراعي لمدة سنة في الولايات المتحدة الأميركية، وبموجب النظام، أجرت الخدمة المدنية امتحاناً لاختيار المهندس الأول تصنيفاً... وقبل إعلان النتيجة النهائية، عين الوزير المختص مهندساً كان في المرتبة الثانية، وأوفده لمتابعة هذه الدورة... علم مجلس الخدمة المدنية بالأمر، وعارض القرار بالطبع... فتألم الرئيس شهاب لهذا الإجراء المخالف لدور المؤسسات... وصبيحة يوم مجلس الوزراء حضر الوزير الى رئاسة الجمهورية باكراً وصرح أمامي بأنه أوفد المهندس الثاني لأنه من منطقتة ويؤمن له حوالي 500 صوت في الانتخابات، وهو غير نادم على قراره هذا، لأن الأول لا يفيد في شيء. استدرك رئيس الوزراء المرحوم رشيد كرامي هذه الحالة، وسعى لإبقاء الوزير في مركزه، لأنه رئيس كتلة نيابية تعطي الثقة للحكومة. ثم أفتي بحلّ يقول بتأمين منحة ثانية يوفد بها لاحقاً الأول لمتابعة تخصصه.

ترك هذا التصرف ذكرى أليمة لدى الرئيس شهاب... لذلك ذكرني به، عام 1970، معلقاً بأننا لا نزال حيث نحن، وهو لا يمكنه الحكم إلا بإرادة الشعب... لكنه، وقبل وفاته بقليل، ندم على قراره بعدم الترشح.

في نيسان عام 1973، وقبل وفاته بأيام وجيزة قابلته لأشكره على اهتمامه الانساني، إثر حادث أليم ألمّ بعائلتي. يومها كان منفعلاً للغاية، يمّج سيجارته بإلحاح، ويتحسّر على ما آل اليه حال البلد، وقد توقع ذلك المساء، أمامي، بأن الدولة ستتهار، والجيش سينقسم، والطائفة ستهدم كل شيء، وستسيل الدماء بغزارة: ويا ويلنا ان أتت سلطة خارجية تتحكّم بالبلاد وبرقاب العباد!... ورأيت دمعة تترقرق من عينيه. وتلك هي المرة الثالثة أرى فيها اللواء شهاب متحسراً باكياً. وكانت الأولى يوم زار الرئيس اشخ بشارة الخوري وهو يحتضر، وكنت برفقته، فقال لدى خروجه من المنزل: اليوم نخسر رجل دولة بالمعنى الحقيقي. فليرحمه الله، وليرحم ايضاً رياض الصلح.

أما المرة الثانية فهي يوم فقد ابنة عمّة الأميرة أليس، وقد أقام لها مأتماً خاشعاً Discret في بلدتهم غزير. يومها تذكر أخواله والمرحومة والدته التي كان لها عنده احترام فائق وحبّ لا حدّ له. في ذلك المساء من عام 1973، حضرت قرينته ورجته بأن يهدئ من روعه وانفعاله Sinon tu vas claquer، وقالت لي: أنظر إنه منذ مدة وهو على هذه الحال، فلا سكينه ولا واحة له. واليوم بالذات قد أحرق بيديه أوراقاً ومستندات هامة... أظنها كانت معدة لتدوين بعض المذكرات او ما شابه. أجاب الرئيس: سألزم الصمت نهائياً وأطلب إليكم من جديد ان تلتزموا بدوركم الصمت عني. وقبل

ان أستأذنه بالخروج والعودة الى وظيفتي في مرجعيون، أضاف لربّما بعد أسوعين ستعود لزيارتي، لكنك سوف تتعثّر في طريق عودتكأ الى بيروت، لأن الواقعة تكون قد وقعت وبدأ القتال بين الجيش والأطراف المسلحة. إلّا انه، بعد ثلاثة أيام، توفي فجأة. إثر نوبة قلبية حادة... وقد شاعت مدام شهاب ان أكون شخصياً ضابط ارتباط بمعيرة المرحوم الدكتور بطرس ديب، مدير عام الرئاسة، لتدبير حيثيات الجنازة وما يتبعها. وفي اليوم الأخير من تقبل التعازي، وأنا في منزل الرئيس شهاب في جونييه، وردني اتصال من قيادة الجيش بأن الطريق في نهر الكلب قد قطعت وتنشبت معركة مسلحة بين الجيش ومسلحي مخيم ضبيه... وعليّ ان أبقى المعزين في جونييه ريثما يتوقف القتال...

سيدي اللواء، يا أيها القائد النبيل، كان لي شرف ان أكون ضابطاً مرافقاً لك وما زال. إنه لفخر كبير أنعم به على مدى الحياة. لقد تعلمت منك الكثير، وفهمت كم هو محقّ ومجدّ عملك المؤسّساتي. وإني أفهم اليوم مدى تطلعاتك المستقبلية لإسعاد كل فرد من لبنان... شأؤوا التغيير من بعدك فتعثّرت مسيرة الإنماء، وصدقت، مع الأسف، توقعاتك في خراب الشان العام.

سيدي الرئيس، ذكراك وتعاليمك باقية ابدأ في كل ضمير حيّ. نتمنّى باستقامتك وإخلاصك للبنان. يا من عملت من دون كلل حتى آخر يوم من حياتك. ومن يصدّق بأن وزنك انخفض أكثر من 15 كلغ بنهاية ولايك! فأنت الزاهد بكل ما هو مادي. قدرك واحترامك ووقارك باقية في الأذهان. وقد كنت تردد بالفرنسية:

Pour vivre heureux, vivons cachés

أجل اعتبر بعضهم بأن العشب سينبت على درج بيتك المتواضع بعد 1964 ولكن ظلّ المخلصون يقصدونك ويتسابقون للقيام والاسترشاد بمواقفك الوطنية الصافية حتى آخر ساعة من حياتك.

سيدي اللواء، (كنت تبتسم بحياء لدى سماعك هذا النداء وتؤثره على نداءات الفخامة الفارغة)، يا من أحب لبنان وكل اللبنانيين الشرفاء البسطاء الباقين على إيمانهم وإنسانيتهم ووطنيتهم الطيبة. فهؤلاء هم بحاجة الى أمثالك اليوم لتستقيم الأمور وليعود الاستقرار والرفاه الى ربوع كل لبنان. نحن بحاجة، نعم، لإيقاف هجرة صفوة شبابنا الجامعيين والمتفوقين، وأولادي من بينهم، طالبين كرامة العيش وحرية المسرى في بقاع الأرض قاطبة.

لست بالمتشائم، بل إنّي أوطدّ الأمل كما كنت تفعل، ولا بدّ لعنمة الظلمة التي يتخبّط فيها لبنان ان تتقشع... فهل قربت نهاية القضية الفلسطينية وتأمّن لشعب فلسطين وطن السيادة والاستقلال؟! عندها، لا

بدّ من ان يتسلّم زمام الحكم في لبنان شباب مسؤول يسير على خطاك ومبادئك، فيعود ووطننا مشعلاً
للديمقراطية والحرية والتقدم في محيطنا الشرق أوسطي.

سيدي الرئيس، أذكرك في مسراي اليومي: أتعظ بموافقك الوطنية الصادقة، أتمنّى بصفاء رؤياك ونقاء
يديك الشريفتين. أصلي لك... وسلام على كل حبة تراب ضمّتك في أرض لبنان، في غزير الرابضة على
مقربة من عذراء حريصا، سيّدة لبنان!

كتبت عن حياتك الشخصية، فعذراً. وإن كتبت فلتطلّع شبيبتنا على ما كنت تصبو اليه من عزّة وإياء
وازدهار لأبناء وطنك.

جبل من لبنان

بقلم عزّت صافي

جريدة الأنوار - 26 نيسان 1973

بعض العظماء، يفتحم التاريخ وهو حيّ.

البعض الآخر لا يعرف عنه إلاّ موته.

فؤاد شهاب عظيم في الحاليين. وسوف يسجّل له تاريخ لبنان ان رجلاً نبيلاً حمل سيفه من أجل بلاده
ولم يتركه إلاّ وقد هوى. ولو استطاع ان ينطق بكلمة في لحظة الغياب لقال: "ضعوا هذا السيف الى
جانبي. انه رمز وطني، ورمز حياتي.

بنى فؤاد شهاب جيشاً، ووضع أسس دولة.

فكّ قيود جيل كان محاصراً بالزعامات والقوانين الطائفية.

أطلق الأمل بوطن عماده الانسان والعلم والعقل.

... وأخطأ... أخطأ كثيراً. كان يظنّ انه يعرف كل الزعماء... والحقيقة انه لم يكن يعرفهم جميعاً،

ولا هم، جميعاً، كانوا يعرفونه.

فؤاد شهاب كان يعرف جيداً اللبناني البسيط، البريء، النظيف، الذي يفكر بصفاء ويعبّر بعفوية.

ولكن لم يكن بين فؤاد شهاب وذلك اللبناني لقاء.

مأساة فؤاد شهاب ان ذلك اللقاء لم يتمّ (إلاّ في الثكنات).

عاش فؤاد شهاب أميراً في الصمت، ورحل أميراً في الصمت.

في رحلته الأخيرة لم يغيّر الأماكن التي يحبها: من بيته في جونه الى النادي العسكري في بيروت، ثم الى ضيعته غزير، فالى الظلمة التي أودع فيها وبقي خارجاً في النور.

كان الموت يعزف لحنه على مدخل النادي العسكري وهو يطلع الدرج على مهل... الحمل ثقيل على فتيان الشرطة العسكرية... ففي النعش جبل من لبنان.

لم يمكث طويلاً في نادية. أتى الوداع. ثم راح يعبر ببطء، شوارع المدينة. ومشى لبنان خلفه في صمت شفاف لا تحرقه إلا شهقة مفجوع مجهول تضيق في بحر الحزن.

كان خلفه فقراء من المدينة، وفقراء من الجبل، لا هو رآهم ولا هم رأوه، وكبار وأغنياء، ورجال سلطة ونفوذ لطالما خاصموه في حياته.

وزار الكنيسة التي اختنق ناقوسها مثل العلم. ثم غادرها متمماً واجباته الدينية بعد واجباته الوطنية.

ومرة ثانية عاد الى الطريق ذاتها. الى جونه. لم يميل على بيته. كان قد تعب، والشمس أشرفت على الغياب.

وصل الى ضيعته غزير، فدخل حجرته، وأغلق الباب واستراح.

يقظة الضمير والمناجاة الكبرى

بقلم اللواء الركن عزيز الأحذب

جريدة الأنوار – 25 نيسان 1998

تحية التقدير والوفاء الى فؤاد شهاب، اللواء القائد والأمير الرئيس، بمناسبة الذكرى الخامسة والعشرين لوفاة الراحل الكبير.

يا قائدي ومعلمي أيّ سرّ فيك؟

وصفوك بالإنسان الكبير، وبالأمير بكلّ ما في الكلمة من معنى. عرفناك شديد العنفوان بدون تكبر.

قوي الشعور بالكرامة، كرامة شخصك وجيشك ووطنك.

تمتعت طوال حياتك بركة التعبير والكلمة الحلوة التي تستهوي النفوس.

تحرّرت من شهوات الدنيا ونزوات الجسد، وترفعت عن الصغائر. وتنزهت عن الهوى. في تحليلك للأمر حكمة العارفين وفي وداعتك ونقاوة قلبك صورة الأولياء وطهارة القديسين. كنت دولة في رجل، وعصبة رجال في رجل واحد، ومجموعة مواهب وكفاءات في جسم واحد، وطاقت مبدعة تضيف باستيعابها النفوس. اتخذت الصمت شعاراً لك، في زمن ظهور الزعامات والخطابات والتظاهر على حساب الأمة، فلقبوك بالصامت الأكبر. صمتك أتعب أخصامك فأفقدتهم أعصابهم وازداد حقدهم بعدما دخلوا في مآهات التكهن والتفسير لسرك العميق.

يا قائدي ومعلّمي ايها الزاهد الأكبر،

كنت زاهداً في الحكم ولم تسع اليه... بل تطوّر الأحداث الإقليمية والدولية سعت اليك ودفعتك اليها دفعاً. وكنت زاهداً بالمال واكتفيت من دنياك ببيت متواضع أقمت فيه، إقامة الناسك المتعبد، تستقبل الناس لا فرق بين كبير وصغير ببشاشة الوجه وروح النكتة.

عشت مثل كل لبناني في حالة متواضعة، لم تبدل سيارتك "الباركر" موديل 1944 بينما كان السياسيون على مختلف فئاتهم يركبون السيارات الفخمة موجة بعد موجة. لا تهّمك المظاهر ولا تتدفع وراء الماديات.

لم تحترف السياسة في حياتك بل كنت بعيداً عنها وعن السياسيين تتحاشى الاختلاط بهم. كنت تسخر من أساليبهم السياسية الشائعة في أيامك، وتملّتهم للسلطة والسلطان، لذلك أطلقت عليهم لقب Fromagiste أي أكلة الجبنة.

تحيّر السياسيون في أمرك ولم يصدقوا انك من طينة أخرى، وانك لا تفهم السياسة بمعناها الضيق وبأسلوبها المتوارث.

عشت غريباً في وطنك وبين شعبك رغم انك كنت الأقرب الى الناس بما خططت ونفذت من قوانين ومشاريع.

يا قائدي ومعلّمي! ايها المصلح الكبير!

أتيت من عالم مختلف تماماً عن عالم السياسيين... أتيت من عالم العسكر الى عالم السياسة. فقطعت شوطاً بعيداً في الاستيعاب واحتواء الآخرين. أتيت الى الحكم حاملاً مشروعاً كبيراً ترى فيه المدخل الى حلّ المشكلات المستعصية.

انتقلت بلبنان من دولة المزرعة الى دولة المؤسسات والإرث الوحيد بين يديك يتألف من رواسب فنتة... ومن ضحايا ومعاقين ومن الخراب المادي والمعنوي.

ففي أسلوبك الرائد البعيد عن الارتهان السياسي سعيت لإيجاد عقد اجتماعي بين اللبنانيين يكون مقدمة لوافق وطني شامل. فأتيت بالخبراء في مختلف المجالات واستقدمت الأب لوبريه "بعثة إيرفد"، لمسح لبنان وإيجاد الانماء المتوازن بين المناطق وأنشأت مؤسسات الدولة التي عرفناها جميعاً.

كرست كافة الدراسات المتوازنة في تنمية المناطق بكل طاقاتك المادية والمعنوية ونجحت الى حد بعيد. كنت بالواقع حلم شعب كاد ان يفقد الأمل في البقاء فأعدت اليه الأمل والرجاء.

لم يفهمك قسم من اللبنانيين لأنك حولت حبك الى كل لبناني من خلال القوانين والتنظيمات التي صدرت في عهدك وهي التي تحميه وتحمي عياله من القهر والعوز وتؤمن المستقبل للأجيال الصاعدة. مؤسساتك والقوانين هي التي أبقت الدولة او بعض الدولة قائماً طوال سنوات الحرب العجاف.

اتهموك برغبة ملحة في تعديل الدستور لتجدد لنفسك وغالبية المجلس تؤيدك، بينما تمسكت انت بحرفية الدستور او ما كنت تسميه (بالكتاب) وطبقته بحذافيره، ولم تخدع بمغريات الحكم والتجديد.

وبالرغم من الانتقادات والمواقف المعارضة من وجود عسكري كبير على رأس الحكم تميز عهدك بالطابع العسكري النزيه والنهج العلمي والتطبيق السليم لديمقراطية أصيلة مارسها حتى خصومك بكل حرية وأمان.

وبالرغم من كل ذلك انقلبوا عليك بحركة عسكرية لتعديل نظام الحكم ولكن جيشك الباسل تحرك بسرعة وسحق التمرد في مهده.

يا قائدي ومعلمي! تنكروا لك قبل صياح الديك!

أنشأت دولة قوية راقية متنا في طاعة وأمرها. فلم يحفظوا لك عهداً ولا تقديراً ولا وفاء ولم يرفعوا لك نصباً في البلاد ولا أقاموا لك المهرجانات الرسمية والشعبية كما يحصل الآن في أي مناسبة من المناسبات.

ما أشبه حياتك بحياة فخر الدين الكبير الذي تنكّر له بعض اللبنانيين، ولولا الجالية اللبنانية في البرازيل التي حرك عاطفتها كتابي "فخر الدين مؤسس لبنان الحديث" لما كان لنا اليوم تمثال رائع على مدخل وزارة الدفاع الوطني.

رحيلك عن الحكم أصاب الوحدة الوطنية في الصميم وترك أهواء السياسيين في فلتان، وخيرات البلاد أسالت لعابهم ففككوا الوطن وقطعوا أوصاله.

بعد رحيلك... أفرغوا المؤسسات من محتواها وسقطت فكرة التخطيط والتصميم وسقطت الدولة بكل أجهزتها ليستفيق اللبنانيون على حرب قذرة دامت 17 عاماً احترق فيها الأخضر واليابس...

وفي غمرة الأحداث المريرة قال سياسي عتيق: "لو بقي الرئيس شهاب حياً او قدّر له ان يعيش أكثر لربما تبدلت أمور كثيرة... لكنها مشيئة القدر ومسيرة التاريخ".

يا قائدي ومعلمي ايها الغائب الأكبر!...

استعجلت الرحيل ورحلت قبل أوانك... بعد رحيلك أدرك اللبنانيون عظمتك وقدرك وعرفوا حقاً انك كنت من طينة الأمير فخر الدين الكبير! كلما طال غيابك عنا، كلما تعظم حضورك وازداد قربك منا لتدخل في عقولنا والقلوب.

رحلت عنا وذكرك باق معنا، وكلماتك ما زالت ترنّ في مسمع التاريخ:
كل لبناني عليه مسؤولية المحافظة على كل شبر من أرض الوطن والدفاع عنها حتى الرمق الأخير.
لبنان لا يعيش برئة واحدة، بل برئتين، ولا يحلق بجناح واحد بل بجناحين.

شهادة للتاريخ... في شهاب

بقلم العميد الركن المتقاعد فرنسوا جينادري

النهار - 25 نيسان 2004

مضت على وفاة الرئيس القائد احدى وثلاثون سنة. أيّ مصير آلت اليه المبادئ التي نادى بها الرئيس فؤاد شهاب؟

تفرّد الرئيس القائد بنهج ومستوى:

جندياً، أضفى على الزي رونقاً وكرامة.

رئيساً للبلاد، أحاط السلطة بهالة من المهابة.

أميراً أوفى الإمارة حقّها، فغداً سيبدأ، سليلاً لعائلة عريقة.

وكان رجل القرارات الخطيرة والتعديلات المؤلمة، ورجل المصالحات والمواجهات، ورجل الالتزام والتجرّد، ورجل الصمت وتأمّل الزهاد.

كان حقاً "رجل مصير ما، ساعة المصير". وفي فترة عاصفة من تاريخنا، كان السراج الذي لمع نوره وسط الزوابع ليعيد الزورق اللبناني السريع العطب الذي تتقاذفه الأمواج الى مرفأ الأمان.

وكان ينعم بقسمات بارزة تنقش بها الأيقونات، وشمخة رأسه مرهونة للاستعراضات العسكرية.

وما عساي أقول: في بسمته السمحاء، وطلاقة لسانه وإن ندر له كلام، والنظرة الثابتة، والمبادرة المتحفظة المدروسة، وتمالك النفس، والانضباط، والصراحة، وضبط الأعصاب، وكلها صفات تحمل على القول ان فؤاد شهاب، حتى لو كان في كامل أناقة بزّته العسكرية، ظلّ العمر كلّه في تأهب أدبياً ونفسياً وأخلاقياً.

واخيراً كان يتمتع بشخصية فذة تجعل من القامة تمثالاً ناطقاً ومن الظل أيقونة معبرة.

يمكن ان يوافق المرء على نهج حكمه او لا يوافق، إنما لا يسع احداً ألاّ يعترف له بخصال قائد ورجل دولة...

ويمكن ألاّ يكون المرء منسجماً مع سياسته، إنما لا يسع احداً ان ينكر انه تحلّى بجرأة رفض إغراءات السلطة، وباحترام الدستور حتى العبادة، هذا الدستور الذي أقسم، ذات يوم من أيام أيلول 1958، على حمايته وصونه حتى عشية انتخابه رئيساً للبلاد في 31 تموز 1958.

وخلافاً لكل نميّة قالها منتقص من قدر او كتبها متجنّ، أجزم ان القائد الأعلى للجيش الذي شرفنتي ملازمته طوال اثنتي عشرة سنة لم يسع البتة الى حمل الحكومة والمجلس على انتخابه رئيساً بأي طريقة او وسيلة.

وأثناء الأحداث المؤلمة التي جرت في لبنان عام 1958 وطوال الفترة الممتدة من أيار الى أيلول، كلّفت بهمّات عدة لإبقاء الاتصال بمختلف القادة المسلمين وأخصّ بالذكر منهم: رشيد كرامي، الحاج حسين العويني، عبد الله اليافي، صائب سلام، كمال جنبلاط. أما الزعيمان الأكثر تواصلًا مع الجنرال شهاب فكانا، بدون منازع رشيد كرامي والحاج حسين العويني، يلازمهما تقي الدين الصلح وعلي بزّي باسم مذهبيهما (السنيّ والشيعي)، وجميعهم يعملون على إقناع الجنرال بقبول منصب رئاسة الجمهورية. وخلافاً لهؤلاء، كان كمال جنبلاط لا يلين له جانب حيال هذا المسعى الى حد رفض الحديث عن عسكريّ على رأس السلطة. ولكم سبق له ان قال: "أشعرنا جدّه بشير الثاني بقبضته الحديدية، فما عساه يشعرنا به سليله ويعينه علينا جيش بكامله؟"

ورغم ذلك، لا شيء منع جنبلاط من التعبير عن احترام فائق لهذا القائد.

وكم من مرة رافقت هؤلاء القادة الى جونه لعقد اجتماعات مع الجنرال.

و غالباً ما كنت الشاهد الخفير الأبرم على أحاديث يحاولون بها جاهدين إقناعه بقبول حمل "هذا الصليب الثقيل". وكل مرة كان يجيب مماًزحاً: "ولكن، مثل هذا الصليب يقود الى الجلجلة وبعد ذلك الى القبر... فأنتم، اذا تريدون القضاء عليّ"، ويرد بجدية: "ولكن، كيف يسعني ان أعطي المثل الصالح لضباط الجيش هؤلاء الشباب الذين لا يستطيع شيء ان يكبح طموحهم، وانا، من يردّ على مسامعهم من الصباح حتى المساء: نحن، العسكريين، لم نوجد للسياسة، وإنما وجدنا لنكون بتصرف الجهاز السياسي". ويورد أمثلة كيفما اتفق: حسني الزعيم، الحناوي، الشيشكلي، السراج، أمين الحافظ، ويعقب: "كيف انتهى بهم المطاف؟ أيّ خير قدّم هؤلاء لوطنهم وأيّ بنيان راسخ أعلوه؟"

وتناوب هؤلاء القادة بدون انقطاع على ملازمته طوال النهارات و احياناً حتى ساعة متأخرة من الليل، محاولين إقناعه بقبول المنصب - الصليب.

هوذا فؤاد شهاب في أنصع مظهره وأنقى سرائره. لم يطمح يوماً الى منصب الرئاسة، وهو مجسّد الضابط الأبويّ الملتزم الجندية عن اقتناع وتصميم.

والجنرال شهاب، أكان في بذلته العسكرية ام على رأس الهرم، بذل قصارى جهده للمحافظة على هدف وحيد في حياته: خدمة لبنان بتحويله دولة حديثة.

فلقد جدّ في إرساء البناء الذي حاول إعادة هيكلته على مبادئ أساسية طالما اعتمدها في بناء الجيش: التخطيط، التخصصية، التكنوقراطية، وهي اساليب عمل لم يعرفها سابقوه ولا حتى حلفاؤه. وتوصل الى إرساء نهج في الحكم أطلق عليه جورج نقاش اسم "الشهاية"، نهج يتمحور على القضايا الاجتماعية والاقتصاد الحرّ تضاف اليها العدالة الاجتماعية.

وأعطى الاصلاح الإداري الأولوية على الإصلاح السياسي، وعلى الصعيد اللبناني كدّ في السعي الى توطيد الوحدة الوطنية التي اعتمدت عام 1943 وقامت على توافق مكونات الشعب اللبناني كافة. وغالباً ما ردّد: "يجب تقوية الشعور بالعروبة لدى المسيحيين ولبننة الشعور العربي لدى المسلمين". وهذا المبدأ كان ينادي به رياض الصلح قبيل اغتياله.

وهذا القول كرّره على مسمعي، يوم ذكرى مولده في 19 آذار 1973، حين جنّته، على عاداتي كل عام، مهناً بهذه الذكرى: "اذا لم يتوصّل القادة المقبلون الى تحقيق هذا الأمر، يتراءى لعينيّ هاتين، بُعيد سنوات معدودات، حمّام دم بين مختلف الطوائف، وهذه المرة لن يكون هناك غالب ومغلوب، بل سيكون هنالك مغلوبان كبيران الى ما لا نهاية.

حينذاك، فنودّع كلمتيّ: سيادة واستقلال."

شهادة من أحد أبناء جونييه - كسروان

بقلم جان كميد

مجلة كسروان

الرئيس الأمير اللواء فؤاد شهاب (1902 - 1973)

- ولد في غزير عام 1902، والده عبد الله، يعود في أصله الى الأمير حسن، شقيق الأمير بشير الشهابي الكبير، والدته بديعة ابنة الشيخ طالب حبيش.
- عام 1910 هاجر والده الى الولايات المتحدة، بعد ان تركه مع أخويه شكيب وفريد بعهدة أمه.

- عام 1914 نزلت عائلته من غزير الى جونية، حيث حضنه خاله، بديع ووديع حبيش، وأدخله الى معهد الفرير في جونية.
- عام 1918 عمل مباشراً في محكمة جونية.
- عام 1921 تطوع بالجيش الفرنسي، ودخل المدرسة الحربية في دمشق.
- عام 1923 تخرج برتبة ملازم، ثم رقي الى رتبة ملازم أول، فنقيب.
- عام 1926 تزوج الفرنسية روز بواتيو.
- عام 1930 تسلم أمره مركز راشيا.
- عام 1937 رقي الى رتبة مقدم، وانتقل الى أركان الحرب العامة، لجيوش الشرق، وعين قائداً لفوج القناصة.
- عام 1938 تخرج من مدرسة الحرب العليا في باريس، بعد دراسات في سان مكسان وشالون وفرساي.
- عام 1942 رقي الى رتبة عقيد.
- عام 1943 تسلم قيادة اللواء الجبلي الخامس، الذي تضمن عناصر لبنانية فقط، وأيد خطوات الحكومة في معركة الاستقلال.
- رقي الى رتبة زعيم، وكلف بتنظيم قوات الشرق الخاصة، المشاركة في حرب شمال إفريقيا.
- رقي الى رتبة لواء، وعين اول قائد للجيش اللبناني، فأسس على المبادئ والقيم العسكرية العريقة، المتبعة في الجيوش المتطورة.
- عام 1947 ترأس الوفد اللبناني لإعادة رفات الأمير بشير شهاب الثاني الكبير من اسطنبول الى لبنان.
- عام 1948 قاد جميع القوى المسلحة المشاركة في حرب فلسطين.
- عام 1952 بعد استقالة الرئيس بشارة الخوري، تسلم لمدة تقل عن خمسة عشر يوماً، رئاسة حكومة مؤقتة، بصورة استثنائية، بصفته قائداً للجيش، وأشرف على انتخابات رئاسية، فاز فيها الرئيس كميل شمعون، وأبقى المؤسسة العسكرية بعيدة عن السياسة.
- عام 1956 عين وزيراً للدفاع مع احتفاظه بقيادة الجيش.
- عام 1958 واجهت البلاد فتنة، ولمس رجال السياسة مدى الخطر المحدق بالبلاد، فلم يجدوا مفرأً من العودة اليه لجمع الشمل. وامام استحالة الاتفاق على شخصية اخرى، قبل المهمة الانتقادية مكرهاً، وانتخب رئيساً للجمهورية اللبنانية.

- عام 1959 اجتمع مع رئيس الجمهورية العربية المتحدة جمال عبد الناصر، في خيمة نصبت خصيصاً، على الخط الفاصل بين الحدود اللبنانية - السورية.
- عام 1960 قرّر الاستقالة بعد ان أعاد البلد الى حياتها الطبيعية، وردّ القطار الى خطه! وتحت تأثير الانتفاضة الشعبية والسياسية، التي لم يعرفها رئيس لا قبله ولا بعده عاد عن استقالته.
- عام 1964 انتهت مدة رئاسته، ورفض التجديد، والرضوخ لطلب غالبية الكتل النيابية، وعاد الى حياة المواطنة، مرتاح الضمير، بعد عهد نقل فيه البلاد من الاستقلال... الى دولة الاستقلال، بما أنجزه من مراسيم وتنظيمات، في الإدارة والتصميم والإئناء والعدالة... بعدما رسّخ في البلاد الوحدة والأمن والازدهار.
- عام 1970 عزف عن ترشيح نفسه الى الرئاسة، رغم موجة التأييد النيابية له، وذلك في بيان "نبوءة" رأى فيه المستقبل القاتم، الذي تسير اليه البلاد، وعدم جدوى المؤسسات الوطنية في الاصلاح والتحديث، لوقف التدهور والانهيال.
- عام 1973 رحل في عزّ نيسان، في أسبوع الآلام، وشيّع في جنازة وطنية، أجمع فيها رأي رجال السياسة والصحافة من كل الطوائف والفئات، على ان غيابه يعتبر خسارة وطنية لا تعوّض، وعلى انه كان رجل دولة من الطراز النادر، طبع تاريخ لبنان الاستقلالي ومؤسسات الدولة، بنهج مميز، وتيار سياسي فريد، لا يزال مستمراً بإنجازاته وأفكاره.

من منجزات العهد:

تحت عنوان "العدالة الاجتماعية" انطلقت منجزات العهد الشهابي من 495 مرسوماً وقرارات، نقلت الدولة اللبنانية حينها من "الاستقلال عن الأجنبي الى دولة الاستقلال، وهذا يدلّ على ان فؤاد شهاب كان أقرب الى الناس في عزلته وصمته، وهنا عرض لأبرز المراسيم: مصلحة الإنعاش الاجتماعي، الصندوق الوطني الاجتماعي، جهاز الدفاع المدني، مصلحة سكك الحديد، صيانة الطرق، إنشاء مصلحة استثمار مرفأ طرابلس، مصفاة طرابلس، المجلس الوطني للبحوث العلمية، مجلس تنفيذ المشاريع الإنشائية، مجلس تنفيذ المشاريع الكبرى لمدينة بيروت، المشروع الأخضر، مشروع الصحة الريفية، التتقيب عن المياه، مصلحة مياه، مصلحة كهرباء لبنان، عيد العمل، تعاقد وزارة الصحة مع المستشفيات الخاصة، مجلس الخدمة المدنية، هيئة التفتيش المركزي، تعاونية موظفي الدولة، تقسيم المحافظات والقائمقاميات، تنظيم وزارة الإعلام، إنشاء مصرف لبنان والوحدة النقدية، الموازنة والرقابة الإدارية، التفتيش المالي وديوان المحاسبة، مجلس القضاء الأعلى، مجلس شورى الدولة، معهد الدروس القضائية، المحاكم الشرعية والمذهبية، كلية الحقوق والعلوم السياسية والادارية في الجامعة اللبنانية، مدارس رسمية للتعليم

المهني، تنظيم التعليم المهني، المعهد الموسيقي الوطني، مديرية الشباب والرياضة، إنشاء مركز سلامة الطيران المدني، تنظيم مهنة تعليم سوق السيارات، قانون النقد والتسليف، قانون الإرث لغير المحمدين، نظام امتحانات الكولوكيوم، تنظيم جهاز رئاسة الجمهورية، مجلس التخطيط والإئماء الاقتصادي، مكتب الإئماء الاجتماعي.

جونيه نموذج... لمراكز الاستقطاب:

طبّق الرئيس شهاب المفهوم الإئمائي لمراكز الاستقطاب على مختلف المناطق، لا سيما على مدينة جونيه، التي أرادها النموذج، فجونية بالنسبة اليه قطعة من السماء، تجسّد طفولته وملاذه الأول والأخير، فجعلها مركز استقطاب رئيسي للمنطقة الكسروانية فجهّزها على صعيد الإدارة بسراي حكومي وإداري، وعلى صعيد التربية بدار للمعلمين والمعلمات، وعلى الصعيد الرياضي بملعب بلدي حديث لنوادي المنطقة، وعلى الصعيد الخدماتي بشبكة متطورة من المجارير ومحطات الإنارة والهاتف، وعلى صعيد النقل والمواصلات بشبكة من الطرق وإكمال الاوتوستراد الساحلي الممتد من بيروت وربط المدينة بأوتوستراد الزوق وأعلي كسروان، على

صعيد السياحة بمرافق خاص لليخوت وإكمال مشروع كازينو لبنان، على الصعيد الإسكاني مساكن شعبية للطبقات المتوسطة، على صعيد التخطيط مشاريع الفرز والضم والتصنيف والاستملاك، على صعيد البيئة الحفاظ على طابع جونيه المميز في أحيائها القديمة وقرميدها وخليجها، على الصعيد المالي مصرف مركزي متفرّع عن المصرف المركزي في بيروت، وعلى الصعيد البحري مرافق للصيد ومسمكة حديثة ومجهّزة، وعلى الصعيد العسكري إنشاء بيوت للجيش والضباط وقاعدة بحرية...

رسول العناية:

يروى لنا التاريخ في عهد المقدّمين في لبنان، الذي سبق عهود الأمراء والقائّمقامين والمتصرفين، ان أخطاراً حاقت بهذا الوطن في زمن مقدّم من هؤلاء... وكانت من الشدة بحيث كادت تقضي عليه، فتصدّى لها ورجاله باستماتة المؤمن بحقه تجاه القوة الغاشمة ولو متفوقة عدداً وعدة وتنظيماً، وانتصر اللبنانيون الأبطال بقيادة مقدّمهم على البغاة، وبدا هذا الفارس على حصانه غداة انتصاره المجيد أشبه برسول أوفدته العناية لإنقاذ هذا الجبل المقدس الذي أرزه أرز الرب، والمنتصب طوداً شامخاً يصل ما بين الأرض والسماء. وفي سياق خبر هذه الواقعة التاريخية ان ناسكاً باراً من نساك الجبل تمثّلت له رؤيا تنبئه بالنهاية السعيدة لنضال المستبسلين في الدفاع عن معقلهم المقدّس، وتريه من وراء حُجب الغيب ان غاشية ستلم بهذا الكيان في آت من الأجيال، فبرز لها مارد عملاق، رسول عناية ايضاً كسلفه وحفيد أمراء سيحكمون

لبنان بعد المقدّمين، فيكون الانقاذ على يديه، ويفهم المريدون شراً بالوطن الصغير ان القدر يقيم عليه حرّاساً يحمونه من كل ضيم، لأنه أرض حرام ممتنعة بقوة الله على الغزاة والطامعين. وتأتي أحداث العام 1958، ويأتي في أعقابها القائد اللواء فؤاد شهاب رئيساً على البلاد، وكان مجرد اعلائه السدة الرئاسية كفيلاً بهدوء العاصفة وإلقاء السلاح من الجانبين، فكتبت على يده النجاة، وتحققت الرؤيا - النبوءة. لقد كان فعلاً من نعم الأقدار على لبنان ان يأتي فؤاد شهاب رئيساً في الوضع الذي كان فيه البلد إذ ذاك، لأنه رجل حوار لا رجل محاور، رجل اللبنانية المفتحة بمقدار ما هي ضنينة باستقلال وسيادة، والمسؤول الذي يريد إنصاف جميع اللبنانيين، فلا غبن في ناحية ولا حاجة لضمانات في الناحية المقابلة، بل الكل ينعمون بوطن هو الضمانة، وهو الحريص على حقوق متساوية للمواطنين دون تمييز. فؤاد شهاب هذا، وانا أكتب عنه اليوم متشرفاً بهذا الاختيار لشخصي كيف كان بالنسبة الى أهل هذه المدينة سواء في فكرتهم عنه او ما عمل وحقق لهم؟ وكيف نمت صورته في مخيلاتهم رويداً حتى غدا الرئيس المثالي، الذي هو مدرسة في العمل الوطني أعادت للسياسة مفهومها الأصيل قبل ان تفسده ممارسات الذين امتهنوها؟ بشخصيته العسكرية، المتوارية عن المجتمع، وطبعه الصامت في حياته وعمله، لم يكن الرئيس فؤاد شهاب، طوال وجوده في الجيش ضابطاً في عهد الانتداب ثم قائداً في عهد الاستقلال، ذا إطلاقات على المدينة التي نشأ فيها، ولم يكن له حضور في أوساطها كما كان لغيره من الشخصيات التي نبتت منها ومن المنطقة الكسروانية عموماً. وهذا ما قاله لنا مرة بنفسه إذ كنّا، في نطاق مجلس رابطة خريجي معهد الرسل، في مقابلة معه أثناء فترة رئاسته، قال، بروح النكتة التي اشتهر بها: "أنا بجونيه بيعرفوني خيّ المير شكيب". ولكن هالة من الإكبار بدأت به في أذهان أبناء مدينته ومنطقته منذ ان تردّد اسمه، في مطلع الاستقلال، لقيادة الجيش. إذ ذاك عرفوا ان مواطنهم هذا، البعيد عنهم بشخصه، هو ضابط مميّز، ترشّحه مؤهلاته ومناقبه الرفيعة ليكون على رأس جيش دولة الاستقلال. فكان ذلك مبعث زهوٍ لديهم. لا سيّما وان واحداً من كسروان لم يكن، حتى ذلك الحين، قد وصل الى منصب عالٍ في الدولة، حتى الوزارة لم يكن قد تولّاها كسرواني إلا واحد هو سليم تقلا.

وفي اول عهده بالقيادة ظلّ يسكن العاصمة، ثم أب الى مسقط رأسه ليقطن وأخويه في مبانٍ متجاورة، وان بقي منسحباً من الحياة الاجتماعية المحلية، كما من الحياة الاجتماعية عموماً. إلا ان أهالي جونيه، وإن لم يعرفه الكثيرون منهم وجهاً لوجه، فقد بدأوا يعرفونه من خلال عمله للمدينة، إذ قرّر إنشاء ثكنة عسكرية فيها، وهو مشروع لم يهضم الجونيون فكرته في البداية لأن انطباعهم عن الجند كان موروثاً من الصورة التي لديهم عن العساكر الأجنبية للدول التي حكمت لبنان، ولكن هذه الصورة انقلبت تماماً في أذهانهم عندما لمسوا ان الجيش الوطني غير جيوش الاحتلال، وان قائد الجيش، ابن كسروان وريب

جونية، أراد من إنشاء الثكنة فيها تنشيطاً لسوقها التجاري ولقطاع السكن، وان غايته كانت مصلحة الجيش والمدينة على السواء.

ثم كانت أحداث العام 1958 التي أشرنا إليها، والتي جاء على أثرها رئيساً للجمهورية، فلعبت التيارات السياسية التي كانت سائدة في حينه دوراً في إيهام فريق من الذين تأثروا بمجرى تلك الأحداث بما لا ينطبق على وطنية الرجل الكبير، ولكن ممارسته الفعلية للحكم أثبتت لهم ان مواقفه ليست نابعة إلا من شعوره اللاطافي واللافتوي، وانه اللبناني الصميم الذي كان أول رئيس إتجه همّه الى إنشاء دولة بكل معنى الكلمة، وإحلال المؤسسات محل الأفراد، وإصلاح الإدارة وتنظيمها، وإرساء دعائم الاقتصاد على يد بعثات علمية متخصصة استقدمها من الخارج للقيام بالدراسات اللازمة حول الشؤون الحيوية للبلاد.

أما على صعيد جونية بالذات فكان في عهده، وبإرادة منه، إنشاء المرفأ بأحواضه الثلاثة، الذي كانت عروس الخليج قبله لا يستقبل شاطئها إلا بعض المراكب الشراعية تحمل اليه الأخشاب والقليل من المواد الأخرى التي تستطيع حملها، وكل الاعتماد، في ما خص الاستيراد والتصدير بالمعنى التجاري الواسع، على مرفأ العاصمة.

ومن منجزات عهده ايضاً إنشاء الملعب البلدي الذي غدا اليوم مجمعاً رياضياً يحمل اسمه، وتفريك جونية - حريصا الذي أعطى المدينة طابعاً سياحياً كانت تهيؤها له طبيعتها بصورة نادرة ولكن دون مسعفٍ من منشآت سياحية تستغل هذه الطبيعة وتزيد حسناتها حسناً.

ولست بحاجة الى التذكير بالمنجزات المتعددة التي يعرفها الجميع، من إنشاء الاوتوستراد، وإقرار مشروع ايكوشار، وكل ما من شأنه إحياء المدينة والمنطقة وبعث الحركة والإنعاش فيهما. ونستطيع القول ان تدفق المصارف على جونية، وقيام الفنادق فيها والمنتجعات البحرية على ساحلها، وغير ذلك من المرافق الاقتصادية والسياحية التي لم تكن جونية تعرف شيئاً منها في السابق، يعود الى المشاريع التي نفذها فيها الرئيس فؤاد شهاب، فأصبحت في نظر مالكي رؤوس الأموال مدينة كبيرة تجذب اليها رجال الأعمال، لا بلدة عادية متواضعة ليس فيها من الصروح الكبيرة إلا بعض المعاهد التربوية.

إزاء هذه الخدمات الجلّى لمدينتهم عرف أبناء جونية قيمة فؤاد شهاب وفضله، كما عرف اللبنانيون جميعاً قدره كرئيس أتى بنمط جديد في الحكم يتجه الى بناء الدولة وتحديثها وإحاقها بركب الدول المتقدمة، الى جانب زهد وتجرد ونزاهة أصبحت مضرب مثل، وجلد على العمل الذي يستغرق وقته كله وراء الجدران الأربعة التي قلّما كان يطلّ من خلالها.

هذه هي الصورة الثابتة والنهائية التي خلفها الرئيس فؤاد شهاب عنه لدى المواطنين جميعاً، سواء منهم أهالي جونية او سائر الكسروانيين واللبنانيين. وهذه جونية اكبرى اليوم تشهد على أثره في إبلاغها هذا

المستوى من الرقيّ المدني والتطورّ السريع. والحمد لله ان لدينا في وقتنا الحاضر رئيساً له هذه الصفات عيناها من إنصراف الى إقامة دولة القانون والمؤسسات، والانقطاع الى العمل دون إلقاء بال الى المظاهر الاجتماعية، أمّا الترفّع، وحصانو النفس، وانعدام المطلب الشخصي فهي مزايا تدفع شخصية الرئيس العماد إميل لحود كما دفعت شخصية الرئيس اللواء فؤاد شهاب، كلاهما جاء في موجة من موجات سخاء القدر على لبنان. وتبقى ذكرى الرئيس الغابر ملهماً لنا ومرشداً، ويبقى وجود الرئيس الحيّ على قمة الهرم اليوم معقد الرجاء بانتفاض الطائر من رماده وقيامه لبنان.

الشهابية او رؤية المشهد التاريخي للبنان الحديث

بقلم فرحان صالح

جريدة النهار - في 2002/11/30

نعود في هذه الدراسة الى ماضٍ قريب، حاولت إبانه الشهابية، وبعد أحداث دامية عرفها لبنان عام 1958، ان تؤسس دينامية سياسية اجتماعية، سواء في مفهوم الدولة، او في مفهوم العلاقات بالواقع المجتمعي.

وضع الرئيس فؤاد شهاب، الذي لا يرقى الشك الى وطنيته ولا الى مارونيته وفي بداية عهده، القوى المتنازعة امام مسؤولياتها، تجاه أعمال قامت بها، إذ كانت الأحداث التي حصلت عام 1958 من ثمرات التنازع بين اللبنانيين، ومن ثمرة هذه التحولات وقوف الحكم اللبناني طرفاً في الصراعات الإقليمية والدولية، عبر انحياز الرئيس كميل شمعون الى جانب حلف بغداد. هذا الموقف أسهم في إدخال اللبنانيين في نزاعات بين بعضهم البعض، وصولاً الى تحويل الحوار بينهم من حوار سلبي الى حوار مسلح.

جاءت الشهابية، وإرادة داخلية وإقليمية مساعدة، بمخططات سياسية واقتصادية واجتماعية وقانونية لمواجهة نتائج تلك الأحداث وضمان عدم تجددّها، إذ أدّى التقاء السياسة المصرية مع سياسة الرئيس الأميركي داويت أيزنهاور، الى مجيء فؤاد شهاب كرمز لهذه التسوية. فكانت المخططات التي أرسيت لمواجهة عقلية الخوف، هذه العقلية التي كادت ان تؤدي الى الخضوع لمن كانوا السبب في تلك

الأحداث... وشملت تلك المخططات جانبين، داخلياً: سياسي واجتماعي وإداري وتعليمي، وخارجياً، يتعلّق بسياسة لبنان العربية والدولية. سنحصر بحثنا في متابعة الشأن الداخلي من السياسة الشهابية، وصولاً الى ما آل اليه الوضع عام 1975.

في الشأن الداخلي:

1- بدءاً من الواقع الاجتماعي السائد، رأى الفريق الشهابي ان الوضع اللبناني يفتقد الى "الوحدة الوطنية"، وان هذه الوحدة تتمّ عبر إلغاء التمايز والامتيازات بين اللبنانيين، وان الميثاق الوطني، بما هو عقد مبرم بين اللبنانيين، هو المرجع لتحقيق الاصلاحات السياسية والاقتصادية. لذا، فقد خطّط فريق العمل الشهابي لإرساء قواعد عصرية لنهضة اجتماعية، قائمة على معالجة المشكلات السياسية والاجتماعية المزمّنة، ورأى ذلك من صميم الواجب الوطني. وتحركت المخططات الشهابية في البدء في شكل عفوي ومباشر، الى ان تغيّر الأمر بعد عام 1961، حين تمّ نشر تقرير بعثة "ايرفد"، هذا التقرير استرشدت به الشهابية، وطرحت تصورات لمعالجة الوضع القائم انطلاقاً من معطيات اخرى كان قدّمها البعض من مؤيدي الفريق الشهابي.

ان الوصف الذي قدّمته تلك البعثة، كان صارخاً في دلالاته، إذ بيّن هذا التقرير ان ثلثي السكان في لبنان يعيشون بين الفقر والعوز، وبعضهم من ذوي الدخل الاقتصادي المتوسط، فـ 49% من السكان يعيشون بين الفقر والعوز، اي نحو نصف السكان، والثلث الآخر يعيش حياة متوسطة المداخل، و14% في حال يسر واكتفاء ذاتي. و4% من كبار الأثرياء، حيث تحتكر هذه الفئة القسم الأهمّ والأكبر من الثروة الوطنية. وعلى صعيد توزيع الملكيات الزراعية، بيّنت الدراسات ان 51،9% من المزارعين يملكون 7،3% من مجمل المساحة المزروعة، ويقدر متوسط ملكيتهم بأقلّ من خمسة دونمات. وان 43،9% من المزارعين يملكون 53،1% من مجمل المساحة المزروعة، ويقدر متوسط ملكيتهم بأقلّ من 25 دونماً. بينما يملك 4،2% من المزارعين الملاكين 40% من الأراضي الزراعية، ويقدر متوسط ملكيتهم بـ 50 دونماً. وتبيّن ايضاً ان عدد العائلات التي حكمت لبنان بدءاً من عام 1943، حتى وصول الشهابية الى الحكم، كان أقلّ من سبعين عائلة.

2- سعى الفريق الشهابي منذ تسلّمه السلطة الى تمثيل برلماني واسع، والى إدخال عدد كافٍ ومتنوع من ممثلي الفئات والشرائح الاجتماعية الى الندوة البرلمانية، وذلك كي تستقيم الحياة السياسية والاجتماعية، ويعود الحكم والدولة الى ممارسة دورهما الطبيعي.

ورغم ان الفريق الشهابي استبعد مؤقتاً، وفي احدى التشكيلات الوزارية من عهده، الرموز السياسية التي أدارت أحداث عام 1958 المسلّحة، إلاّ أقام مع هذه القوى حواراً فعلياً وجاداً حيناً، متوتراً أحياناً، ممّا دفع بكمال جنبلاط، وهو الذي كان الى يسار المشروع الشهابي، الى التنسيق والعمل مع شهاب، فكانت له الشهابية. كما ان شهاب سعى، عبر جنبلاط، الى حوار مع الأحزاب السياسية اليسارية والعروبية القومية، وأراد من خلال هذا الحوار تفعيل الحياة السياسية، ووضع الجميع ضمن سياقات عمل الدولة، في صراع ايجابي وبناء يخدم المؤسسات المجتمعية ويطورها، ما يسهم في نمو فكرة الدولة وبناء علاقات ايجابية مع فئات المجتمع المختلفة. وبهذه السياسة استوعبت الشهابية تذمّر المسلمين، وعملت على دمجهم في النظام.

كما تعاون شهاب مع "حزب الكتائب"، للغاية نفسها واستمرّ هذان التعاون والتحالف الى ان أقنع كميل شمعون حزب الكتائب المتمثّل بالشيخ بيار الجميل، بالخروج من التحالف، وتأسيس ما يسمى "الحلف الثلاثي"، الذي كان موجوداً، لكن لم يعلن عنه حتى عام 1969. لقد خشي شمعون والجميل وريمون اده انجرار الشهابية وراء سياسة عبد الناصر، وربط السياسة الشهابية بالسياسة العربية. كما ان الحلف لم ترق له السياسة الشهابية الهادفة الى صعود قوى سياسية جديدة، وهو ما كان يعمل له فؤاد شهاب فعلاً.

ويلاحظ، ان الشهابية لم تقطع العلاقة مع من شاركوا في أحداث عام 1958، ولكنها لم تعطِ هؤلاء - وفي حساباتها - ما كانوا يريدونه، إذ انه، وخلال تشكيل بعض الوزارات، تمّ استبعادهم. وهذا ما حدا بشمعون والجميل الى مخاطبة شهاب قائلين له: "انهم هم الذين يمثّلون المسيحيين، والموارنة خصوصاً، وليس هو".

لذا، ومنذ اليوم الأول لصعود الشهابية الى السلطة، تكرّست في إدارة الحكم في إدارة الحكم عقليتان، عقلية الفريق الشهابي الذي انفتح على مختلف المناطق والشرائح الاجتماعية، هذه العقلية التي جسدت في خطابها السياسي وسلوكها الاجتماعي، رؤية جديدة للقضية الاجتماعية بما هي من مسؤولية الدولة. فقد كانت الأفكار الاجتماعية، وفي الكثير من جوانبها، أفكاراً ذات حضور وفاعلية في فكر هذا الفريق.

أما العقلية الأخرى، فكانت في سلوك الزعامات العائلية والطائفية، التي حملت السلاح ضد بعضها البعض، (خرج عن هذا الوضع كمال جنبلاط). هذه الشريحة التي كانت تريد ان تختصر بمصالحها، ما هو ذو شأن عام ومصالحة عامة، وعملت من ضمن سياستها على إلحاق مصالح الدولة بمصالحها. هذا الفريق، الذي حدّد حضوره بعد الحرب العربية - الاسرائيلية عام 1967، أسّس مجدّداً، وبوقوفه ضد الاصلاحات الشهابية - هذه الاصلاحات التي تمّ إفراغها من محتوياتها لاحقاً، ما أسّس لحرب أهلية

جديدة - حرباً بدأت بإدارة محلية محرّكة لها. واستمرّت رموز الحرب في تحريكها، عبر دعم عربي ودولي فاعل، أدّى الى الوضع الذي وصل اليه لبنان عام 1975.

لقد رأى الفريق الشهابي ان حقائق التوحيد تحدّد بالحوار والتفاعل وليس بالهيمنة، ورأى بالتنوع والتلاوين التي بنى عليها الوضع السياسي والاجتماعي اللبناني، انها لقاء، لقاء من كليات مجتمعية، تبدأ بالفرد (الإنسان) وتكتمل بحقائق من الحياة، بل على ما يقوله الشيخ عبد الله العلايلي، مع ما لهذا الكلام من معنى يفتح على الهمّ المجتمعي. ويتعاطى مع همّ الانسان والوطن. فالآخر، مهما كانت معتقداته، هو النعمة عينها لا النقمة، وان للايمان أشكاله التي قد تتحقق عبر رؤية سنوية او شيعية او درزية او علوية، هي جميعاً من ضمن حقائق التوحيد وليست خارجها. وقد تأتي ايضاً عبر طرق من إيمان مسيحي. أكان هذا الإيمان ينتمي الى الاجتهاد الماروني ام الكاثوليكي ام البروتستانتي ام الأشوري، ام السرياني ام غير ذلك. فالله هو الواحد الذي تدين بإيمانها له كل تلك الاجتهادات، وعلى قول أمين الريحاني: "ولتجمعنا الوطنية اذا فرقنا الدين. الله لا يريد التفريق".

الإصلاحات الشهابية:

3- انطلاقاً من الواقع الاجتماعي السياسي، وضعت الشهابية تصوراتها، فخطّطت لإصلاحات سياسية اجتماعية، بدأتها بوضع خطط للإنماء الزراعي والريفي، فكانت إيمانية في الجنوب والبقاع والشمال، وكان لهذه السياسة ان عملت على دمج هذه المناطق في بنين الدولة كبديل من فكرة الإلحاق التي كانت سائدة قبل عهد شهاب، والتي استمرت من قبل كاستمرار لسياسة الانتداب الفرنسي. وتتويجاً لهذه السياسة تمّ إنشاء "المشروع الأخضر"، الذي منه ومن السياسات التي وضعت الإصلاح الريفي، والتنمية الزراعية والاجتماعية، استمدّت الشهابية الكثير من توهّجها، ممّا أسهم في تحويل الكثير من الأراضي البور أراضي زراعية.

ومن ضمن التوجّهات إيّاها، وضعت المخططات لبناء المدارس، وتمّ نشرها في الريف اللبناني، حيث جرى تأسيس مئات المدارس الابتدائية والتكميلية والثانوية في القرى والمدن. كذلك تمّ التخطيط والتنفيذ لبناء البنى التحتية للكثير من المشاريع، منها مشاريع شبكات الكهرباء، وشبكات المياه والصرف الصحي، وشبكات الهاتف، كذلك شقّ الطرق لربط القرى والمدن بالأرياف، وتمّ بناء العديد من المستشفيات في مختلف المناطق الريفية. وكان لهذه السياسة ان أسهمت في تخفيف الحرمان عن الفئات الفقيرة. وبهذا اعترفت الدولة بحقوق المناطق المختلفة التي تكوّنت منها الجمهورية ممّا قد يفسّر بأن الشهابية عبّرت في جانب من وجوهها الأساسية عن خلاصة مطالب المناطق التي استرجعت الى الدولة في عهد الانتداب.

4- وضع مخططات لتنظيم العلاقة بين العمال وأرباب العمل، وقد تمّ ذلك من خلال تنفيذ الضمان الاجتماعي، الذي رأت الشهابية فيه إمكان تنظيم تشريعات جديدة للعلاقة بين العمال وأرباب العمل، تشريعات هادفة الى رفع مستوى معيشة العمال والمأجورين، ممّن شرعت لهم واستحدثت العقود الاجتماعية، التي أريد منها ان تشكل مدخلاً فعلياً للأمن الاجتماعي، ممّا يؤدي الى دعم سلطة الدولة، وجعلها سلطة الحكم الوحيدة في النزاعات التي قد تنشأ بين العمال وأرباب العمل.

ومن ضمن سياستها تلك، وضعت الشهابية تصميماً للإدارة العامة، عملت بموجبه لإصلاح الإعوجاج الذي كانت عليه مؤسسات الدول، فتمّ إنشاء "مجلس الخدمة المدنية" و"التفتيش المركزي"، للإشراف على الإدارة العامة. وعهد بموجب ذلك الى المشرفين على هذه الأجهزة تحديد شروط الوظيفة العامة، وجعل عملية الدخول الى ملاك الدولة، في منأى عن التدخلات والوساطات. كما عملت على عزل أجهزة الموظفين عن السياسيين، إذ تمّ استبعاد عنصر الوساطة بما هو عنصر الفساد الأول للإدارة. وتمّ إنشاء "معهد للتدريب على الإنماء والتخطيط الإداري" لتنفيذ هذه الغاية، وذلك عام 1961، وتمّ دمجها عام 1964 بالمعهد الوطني للإدارة، ووضع تحت وصاية وزارة التصميم، وأتبع لاحقاً بمجلس الخدمة المدنية. كما تمّ تأسيس ديوان المحاسبة، والمجلس التأديبي العام.

لقد أسهمت الشهابية، سواءً في إنشائها هذه المؤسسات والأجهزة المكتملة لها، هذه التي كان عليها ان تتولّى ادارة المجتمع كلّ، او بالعمل على تحقيق الحياد في اختيار الموظفين أصحاب الكفاءات، سعياً الى ائصال المطلوب الى المركز الذي يستحقّه. وبهذا فقد حققت الشهابية حلماً طال انتظاره لإيصال كفاءات كانت تستبعد، في العهود السابقة، اما لضعف صلاتها بالزعامات التي حكمت، او لضعف موقعها في مجريات الانتخابات. ونتيجة لهذه السياسة دخل الى إدارات الدولة ألاف الموظفين الكفوئين، هؤلاء الذين أسهموا لمدة محدودة في صياغة حياة سياسية واجتماعية جديدة.

فضلاً عن ذلك، وللتعرّف الى العقلية التي بنيت عليها الشهابية، نشير الى الحادثة المشهورة التي وقعت في رأس بعلبك، بين سكان هذه البلدة وعشيرة الدنادشة، وذلك عام 1954. حصل يومذاك صراع مسلّح بين سكان تلك القرية والدنادشة، كان من نتيجته مقتل سبعة أفراد من البلدة، واثني عشر جندياً، وضابط واحد. رفض شهاب ان يتدخل الجيش اللبناني ويهاجم المنطقة التي حصلت فيها تلك الأحداث، وأمر الرئيس شمعون باعنتقال مسيبي الحادث. وأصرّ شهاب، تحت التهديد بالاستقالة، على طلب العفو عن هؤلاء، مطالباً بإنصاف هذه المناطق، والاهتمام بمطالبها الاجتماعية والتربوية والسياسية. ومن ثمّ محاسبة المسؤولين عمّا حصل. لقد رفض شهاب توظيف الجيش في خدمة صراعات مرتبطة بمصالح

الزعامات السياسية والطائفية، واعتبر ان سياسة الدولة سياسة مشبوهة، ولم يرَ في تصرفات سكان الأرياف إلا تصرفات ذات مواقف عادلة، وعلى الدولة ان تستجيب لتلك المطالب.

الاستقرار السياسي:

5- لقد تمّ فتح بعض الفروع للجامعة اللبنانية، كما تمّ توسيع بعض الفروع الأخرى وتجهيزها وهذا ما أدّى، إضافة الى فتح المدارس الابتدائية والتكميلية والثانوية في مختلف المناطق، الى مقاربات ثقافية أدت الى تحسين الوضع الثقافي والتعليمي، ومن ثمّ، السياسي، وايضاً الى تزويد قطاعات الدولة وإدارتها بكادرات مختلفة عما هو موجود من عقلية تقليدية، فأدّى ذلك الى تحسين أداء العمل الوظيفي. فالمقاربات الثقافية والتربوية هذه شكّلت ايضاً مدخلاً فعلياً لتحسين وضع العمل السياسي في لبنان، وساعدت على نشوء تيارات سياسية جديدة هي ثمرة التطورات والأحداث الداخلية من جهة، والمحيطه عربياً ودولياً من جهة أخرى.

كما أسهمت الشهابية في سياستها تلك في تخفيف حدّة التمايز الصارخ بين اللبنانيين في المناطق المختلفة، وعملت على إيجاد مقاربات فعلية سياسية واجتماعية، ممّا أدّى الى تفاعل فعّال في الجسم الاجتماعي. فالأحزاب السياسية، اليسارية منها والقومية والناصرية، والتي كانت الى يسار الشهابية، كانت أيّدت المخططات الشهابية. وكان للشيوخيين أكثر من بيان يؤيدون فيها المخططات والمشاريع. وهذا ما ساعد على تحقيق الكثير من الاستقرار السياسي، وعلى إنجاز المشاريع التي أرادتها الشهابية. ان المناخ الذي ساد خلال المرحلة الأولى من الحكم الشهابي أدّى الى تهيئة أوضاع توافر فيها الحد الأدنى من المناخ المطلوب للنشاط السياسي الاجتماعي والثقافي الفاعل، سواءً في الريف او في المدن. لقد تحوّلت المدارس والجامعات خلايا حيّة لمختلف أنواع الأنشطة. كما تمّ تأسيس المنتديات والجمعيات الثقافية والأهلية، وكذلك النقابات المهنية التي أسهمت جميعها في الاستقرار وفي تفاعل سياسي ايجابي في الحوار الوطني والسياسي. ورغم وجود الكثير من العراقيل والعقبات الفعلية التي رافقت المرحلة، وكان نواتها لا الحلف الثلاثي فقط، بل المصالح العائلية والطائفية التي بدأت تتصدّى وتعمل لعرقلة المخططات الشهابية، بدعم داخلي وغربي وأوروبي، فقد أدّت هذه المخططات الى سياسة أكثر عدلاً في الداخل، والى ربط لبنان بالعرب.

6- لقد حاكى المشروع الشهابي القوى الحيّة في المجتمع، القوى ذات العقلية المنفتحة والمحاورة، والتي كان منتظراً منها ان تلعب دوراً تجديدياً في المجتمع وفي الحياة السياسية. فالمشروع الشهابي حاكى في مضامينه أحلام الأجيال الجديدة، والقوى التي كانت مستبعدة.

ومما ساعد ايضاً على تحقيق المشروع الشهابي، ان الرئيس شهاب، بما انه الرمز الأول للمؤسسة العسكرية، كان هو إِيَّاه يعبر عن تطلّعات هذه المؤسسة قبل أيّ شيء آخر، وكان يرى بعيون أفرادها وكوادرها الوضع اللبناني العام. لقد منّلت المؤسسة العسكرية، ولا زالت، الشرائح الاجتماعية المختلفة في المجتمع اللبناني. ففيها أبناء الفلاحين والذين هم من المناطق النائية ومن القرى، وكذلك ابناء العمّال من سكان المدن ومن القرى اللبنانية المختلفة، وفي هذه المؤسسة أفراد من مختلف الطوائف والمناطق والخلفيات السياسية والاجتماعية. انها الجامعة الأولى لكل تطلّعات اللبنانيين، ومنها تكمن متابعة ميول الشخصية اللبنانية في علاقتها وقيمها وسلوكيتها. نقول هذا ونعرف ان المطلوب هو التجديد في بنى هذه المؤسسة، إذ يجب ان تتحوّل من مؤسسة استهلاكية الى مؤسسة منتجة، وهذا يحتاج معاهد وكليات ضمن المؤسسة، من أجل تدريب كوادرها وأفرادها على كل الاختصاصات والمهن، العملية منها والنظرية، من مهندسين، الى أطباء الى فنيين، وإداريين، بحيث تتمكن هذه المؤسسة من الدخول الى كل المناقصات، سواء منها لتأهيل بناء السدود وتحريج الجبال العالية، والمساهمة ايضاً في شقّ الطرق والاوتوسترادات وإقامة الأنفاق والجسور...

لقد اختار الفريق الشهابي الاثنيان بصفوة ادارية وظيفية تمثيلية من مختلف قطاعات المجتمع. وكان ان ساعد هذا الخيار على المجيء بنخبة كفوءة، عملت على تنظيم دورة الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية والتربوية، وتنظيم دورة الجسم المختلفة، وذلك بضخّ دم جديد من فئات وشرائح كفوءة. وكان ان تمّ من خلالها خلق معايير للوصول الى الوظيفة العامة، إذ أصبحت هذه الأمور المنظمة تتمّ عبر مجلس الخدمة المدنية المدنية في شكل منظم.

كما نلاحظ نمو الخوف الذي رافق تلك الاصلاحات، والذي أخذ اشكالاً مختلفة، منها محاولة الانقلاب التي قام بها القوميون السوريون أوائل عام 1962، وما سبق ذلك من تطورات إقليمية حصلت قبل فشل الوحدة السورية - المصرية عام 1961، ومنها ضغوط التيارات الطائفية، ومنها تسلّم حكم أقلّ حزماً وقوة تلا الحقبة الشهابية تمثّل بالرئيس شارل حلو. تضاف الى ذلك هزيمة العرب عام 1967، وانعكاس ذلك على لبنان، مع بروز المقاومة الفلسطينية، التي وجدت في مجمل هذه المسائل، أرضية مناسبة لها، للعمل، وإيجاد منطلق للثورة مواز لمنطق الدولة، منطق توازت فيه مهمة التحرير مع مهمة تغيير موازين القوى المحلية في لبنان، وقد استغلت لمصلحة المسلمين.

كل هذه العوامل والأوضاع تزامنت مع نموّ أجهزة مخابراتية في لبنان خصوصاً في الحقبة الثانية من الشهابية تدخلت في الشؤون العامة، وفي الحياة الديموقراطية، إذ ان الرئيس شارل حلو كانت قد غابت

عن مخططاته مشاريع للتجديد والإصلاح الحكومي، ترافق ذلك مع الهجوم المحكم من الحلف الثلاثي وكل ذلك أدى إلى التراجع التدريجي للشهابية حتى 1970.

لذا، فالمطلوب اليوم، وضع هذه التجربة التاريخية امام اللبنانيين والعرب، وذلك لدراستها والإفادة منها، وصولاً إلى أخذ إيجابياتها في الاعتبار، ومعرفة المستجدات، ليس فقط التي أدت إلى الحرب الأهلية (1975/1990) وحسب، بل لمعرفة مواصفات الصفوات الحاكمة اليوم وتحديدتها. هذه الصفوات، التي يحمل بعضها إرثاً مشاركاً في الحرب، أضف إلى أن بعضها، يحمل مع إرث الحرب ورواسبها، إرث بعض العائلات التي يتواصل حضورها في الجسم السياسي اللبناني، والذي تواصل حضورها أيضاً في حكم لبنان، وتكوّنت منه الطبقة الحاكمة في المجالين التنفيذي والتشريعي، وبعضها الأخيرة من الصفوات التي كوّنت ثروات بطرق استغلّت فيها أوضاع الحرب، أو عوامل إقليمية ودولية، أو ما شابه ذلك. والقسم الأخير، هذا الذي ارتبط اسمه وحضوره بالجهد والكفاءة التمثيلية على المستويين السياسي والاقتصادي الاجتماعي.

لقد كان دور معظم هذه "الصفوات" التي جاءت بعد اتفاق الطائف، بمساعدة إقليمية ودولية، سلبياً، إذ لم تحكم تصرفاتها أي ضوابط، وأي معايير، فضلاً عن أنها دمجت بين مصالحها والمصالح العامة، ممّا أدى إلى الوضع المالي الحالي، وإلى إشباع إدارات الدولة بالأزلام والمحاسيب، وإلى تعطيل فاعلية مجلس الخدمة المدنية وشلّ عمل المؤسسات، بما فيها مؤسسات الرقابة العامة، وتعطيل عمل الدولة... لقد كان هذا الفريق، في معظمه، غير مؤهل للحكم، ولا يمكن الوثوق بسياسته، وبتحمّله المسؤولية. وهذا ما أدى إلى تعميم الفساد واستشرائه، وإلى تعميم حالات الاستزلام، فضلاً عن ذلك أن الكثير من الذين تمّ استزلامهم، والذين كانوا يخونون مصالح من يمثلونهم يومياً، تمّ الاتيان بالكثير منهم، كممثلين لمصالح الناس، وناطقين باسم الشعب. وهذا ما ساعد على الانهيار التدريجي للدولة، وإلى ضعف التماسك الاجتماعي، والهجرة المكثفة، التي ما زالت مستمرة، وكأنّ الوطن موضوع على لائحة التصفية. كيف يمكن للدولة، وفي ظل سياسة وحدة المصير والمسار، أن تعمل على إصلاحات تعيد الثقة بها مجدداً، بحيث يتمّ إطلاق يدها في الداخل وتستطيع تنفيذ مشاريع الإصلاح السياسي والاقتصادي والثقافي والاجتماعي، وتهيئ للتكامل الاقتصادي مع سوريا وتسهم في إيجاد مناخات عربية لتنفيذ مشروع السوق العربية المشتركة وصولاً إلى وقف الهجرة وعدم تجدد الحرب؟